طلال أبو غزاله

الصعود إلى القمة

ماهر مقلد



طلال أبوغزاله

الصعود إلى القمة

ماهر مقلد

إصدار مركز الأهرام للنشر

مركز الأهرام للنشر

مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة

تليفون: ٢٢٧٠٣٤٤٥ - ٢٧٧٠٥٠٦٣

منذ إنشائه فى ١٩٧٦ تحت اسم مركز الأهرام للترجمة العلمية وخلال مسيرته بعد أن أصبح مركز الأهرام للترجمة والنشر وصولا إلى وضعه الراهن، أصدر مئات العناوين التى حملت خلاصة عقول وأفكار وإبداع نخبة من المفكرين والكتاب فى مصر والعالم العربي. ويرحب المركز باقتراحاتكم وأفكاركم.

الطبعـة الأولى

٢٠١٦



رقم الإيداع: ٢١٤٥١ / ٢٠١٦

الترقيم الدولى: ISBN 978-977-320-266-8

المحتويات

الفصل الثالث

الإهداء

إلى

كلّ إنسان

في كلّ مكان

يجتهد ويعمل

لأجل تحقيق ذاته

ويساعد الآخرين

في بلوغ حلمهم

بشرف وأمل

«لا حسب كالتواضع، ولا شرف كالعلم»

مثل عربي

استهلال

علاقة صداقة ممتدة جمعت بين الأستاذ محمد حسنين هيكل والدكتور طلال أبوغزاله، واستمرت عقوداً طويلة كانت قائمة على الإحترام الكبير والتقدير الشخصي المتبادل بينهما اعتزازا بالمكانة العالميّة التي ارتقى إليها كلاً منهما.

هيكل عملاق الصحافة العربية والأسم المدوي عالمياً.

أبوغزاله فارس العرب فى المحافل الدوليّة والعالميّة بامتياز.

تعددت اللقاءات والمناسبات التي جمعت بينهما لكن ظلت الصورة المنشورة على غلاف الكتاب هي أحد اللقطات التي يحتفظ بها أبوغزاله من بين لقطات جمعتهما على مدار السنين.

كان الأستاذ هيكل قد وعد بكتابة مقدمة كتاب طلال أبوغزاله الصعود إلى القمة خلال مأدبة الغداء التى أقامها فى منزله بالجيزة لطلال أبوغزاله وزوجته، وتحمّس كثيراً للكتاب بعد أن عرف أن المؤلف هو ابن الأهرام الكاتب الصحفي ماهر مقلد.

وخلال مهمة انجاز الكتاب شاء القدر أن يرحل الأستاذ هيكل تاركاً خلفه رصيداً هائلاً من العطاء والإنجاز، ووفاء من صاحب السيرة تمنى أن تكون هذه اللقطة هي صورة الغلاف تخليدا للعلاقة، وكان القرار بالموافقة فمن لا يتمنى ان تكون صورة هيكل أبرز صحافي القرن فى العالم وفخر العرب فى بلاط صاحبة الجلالة حاضرة في هذا العمل وغيره من الأعمال التي تتحدث عن النماذج العربية المضيئة فى العالم.

وتبقى الرسالة الأهم فى حرص صاحب السيرة على وضع الصورة على الغلاف هي قيم الإيثار التي يتحلى بها حتى لو كانت على حساب مساحات مقتطعة من حقوقه في العمل الذي يتناول سيرته.

والأهم قبل كل هذا وبعده في الوفاء بعد الرحيل، وكما يقول المثل الهولندي «أمهل الوعد وعجل بالوفاء».



طلال أبوغزاله

المقدّمة

قصّة حياة الدكتور طلال أبوغزاله المفكر العربيّ مؤسّس مجموعة طلال أبوغزاله الواسعة الانتشار في مجال الخدمات المهنيّة والتعليم وبناء القدرات على مستوى العالم تجربة خاصة في الحياة، فهي رحلة مثمرة عبر السنين جمعت كلّ مقوّمات القصّة الإنسانيّة الواقعيّة التي كانت جزءاً من مأساة التّاريخ الكبرى، وشهدت لحظة الانكسار في عام ١٩٤٨ بكلّ أحزانها وفصولها، وهي تجربة لا تعرف من الخيال شيئاً غير النجاحات المهنيّة المدوّية التي أصبحت حقائق تمشي على الأرض.

كتاب طلال أبوغزاله «الصعود إلى القمّة» مجرّد محاولة للاقتراب من عالمه الخاص، والبوح بمنهجه في العمل والإدارة، وكيف نجح في أن يبني مجموعته التي تنافس أكبر الشركات العالميّة بل تتقدّم عليها.

ملحمة من العطاء في صمت، ونموذج في النبوغ الفطري الذي يثبت يوما بعد يوم أن قطار العمر في كل محطاته يتحرك نحو الإخلاص في العمل بشرف وأن رسالته الخالدة لكل انسان في هذه الدنيا هي المثابرة في الحياة حتى بلوغ الهدف.

يذكر بفخر قيم الوفاء للكبار الذين تعرَّف عليهم في رحلته الممتدة لايفرق بين بني البشر،ويعتز كثيرا بكل من سانده في حياته كما يذكر بالفضل أولئك الذين وضعوا الحواجز في طريقه لمنعه من المرور إلى الأمام لكنهم - دون قصد - منهم شيدوا له منصات من التتويج يقف عليها ويرى من خلالها العالم افضل والأمل في الغد أعرض.

فلسفته في الحياة بسيطة جدا لكنها عميقة إلى أبعد مدى فهو لا يرى بديلا أمام طالب النجاح في كل مناحي الحياة سوى المزيد من الإجتهاد والإخلاص في مهمته.

يتحدث الكتاب عن تجربة كبيرة راسخة لها بصمات وحققت انجازات تجاوزت كل التوقعات، لكنها ولدت من رحم الإصرار والثقة بالنفس والنظام اليومي الصارم.

تجربة حياة أبوغزاله ابتعدت تماما عن الشعارات الرنانة، واقترنت إلى حد التوحد مع فلسفة الإنجاز، وتوالت عبر السنيين الشهادات المنصفة في حقه من رموز عالمية تتسم بالموضوعية، وتعلّي فضيلة الحق على ما سواها.

كان في كل مرة يستحق اكثر مما قيل عنه لا من باب المديح أو المجاملة لكن من نقطة الصدق الفاصلة بين الأشياء، ومنح الأوفياء للقيم النبيلة والمعاني السامية ما يستحقون.

وعبرت بوضوح عن كل هذا المناصب العالمية الرفيعة التي تولاها ممثلا للإنسانية بعيدا عن كل معايير الاختيار التي تنطلق من قواعد المحاصصة بين الدول أو لعبة الإنتخابات وحشد الأصوات بل كانت مناصب تبحث عن تفرد في الملكات والقدرات العلمية والمهنية لأبرز الشخصيات المرموقة دوليا في مجالات المحاسبة والإدارة وتقنية المعلومات.

في مرحلة الإعداد للكتاب طويلاً توقُّف أمام سنوات طفولته، الصعبة لدرجة أنّني خشيت من أن أكون أسيراً لهذه المرحلة بكلّ ما فيها من معانٍ إنسانيّة، وقصص دافئة، تروي رحلة طفل فلسطينيّ هاجرت عائلته قسراً إلَى الشتات وعاش كلاجئ في مدينة صيدا بجنوب لبنان، لكنّه كان ملهماً وهو صغير وصنع بفكره –الذي كان يسبق سنوات عمره بمراحل كبيرة– عالماً مثاليّاً أتاح له مواصلة الدراسة في أصعب الظروف والانخراط في العمل في الوقت نفسه دون شكوى.

في سنوات طفولته قدّم التضحيات التي يعجز الكبار عن الوفاء بها، وكان يتصرّف في المواقف بحكمة ويخطّط لسنوات عمره بعقل راجح ورؤية تستشرف المستقبل.

بدأ طلال أبوغزاله مشوار النجاح في الحياة، وهو مازال طفلاً صغيراً، بعد أن اقتحم سوق العمل الشريف بجانب تفوّقه الدراسيّ في جميع المراحل حتى تخرّج من الجامعة الأمريكيّة في بيروت بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى.

عندما بدأت في الكتابة عشت الحيرة طويلاً ففي قصّة حياته هناك مواقف بالغة التأثير لا يمكن المرور عليها مرور الكرام، وكلّ موقف –أو مرحلة– جدير

بأن يكون البداية، كما واجهت غزارة غير معهودة في تفاصيل الأحداث وتنوّع النشاطات والاهتمامات.

كلّ فترة زمنيّة من مراحل عمره تعبّر عن تجربة ثريّة بالأحداث والتفاصيل بالمشاهد والدروس، بل وتستحقّ أن تكون هي البداية والسطر الأول.

وإزاء هذا خصصت الفصل الأوّل للحديث عن طلال أبوغزاله العالميّ، باعتباره وجهاً من الشرق له بريق ونجاحات دوليّة وإنجازات مهنيّة مرموقة صنعها في مشواره، وهو نجاح يمثّل حالة من الزهوّ لكلّ عربيّ، وربطت هذا النجاح مع ملامح من طفولته، وابتعدت عن الترتيب المعتاد في كتابة السير الذاتية التي عادة تبدأ من تاريخ الميلاد، ثمّ تتصاعد تدريجيّاً حتّى رحلة العمل والنجاح.

المرّة الأولى التي تعرّفت فيها على الدكتور طلال أبوغزاله كانت قبل خمسة وعشرين عاماً مضت.

اللقاء كان في قاعة كبار الزوّار في مطار القاهرة الدوليّ وهو ينتظر الطائرة المتّجهة إلى عمان، ووعدني أن نلتقي في أوّل زيارة للقاهرة.

وأذكر أنّه دعاني لحضور مؤتمر عن موقف الدول العربية من منظمة التجارة العالمية عُقِد في بيروت العاصمة اللبنانية عام ١٩٩٤ ضمن وفد مصريّ، برعاية الراحل رفيق الحريري رئيس وزراء لبنان في ذلك الوقت.

شاهدت للمرّة الأولى كيف يعمل، فكان يظهر في المؤتمر كأوّل مشارك في الصّباح قبل أن يحضر الجميع، ويستمرّ حتّى نهاية اليوم بنفس الهمة والنشاط، يبتسم في وجه الجميع، وينادي الحاضرين بالاسم على الرغم من الأعداد الغفيرة التّي كانت تشارك في المؤتمر من كلّ الأقطار العربيّة، ومن المنظّمات الدوليّة، وتكرّر المشهد بتفاصيله الكاملة في مؤتمرين بالأردن والبحرين، بجانب أنّه شخصية تجيد فنّ الإنصات والتّعامل بكلّ الاهتمام مع أيّة فكرة أو أيّ اقتراح يسمعه ويقتنع به.

ينسج علاقات احترام مع جميع العاملين في مجموعته، ويتعامل معهم بروح الزميل لا الرئيس، برغم الهيبة التّي يتمتّع بها نتيجة تفانيه في العمل وخبرته الكبيرة في فنونه وتصرّفاته كقدوة يلتزم في العمل بكلّ الإخلاص.

محطّات مهمّة في مشواره بدأت في لبنان مرحلة الدراسة، ثمّ امتدّت إلى الكويت رحلة العمل هناك وتأسيس شركته عام ١٩٧٢ التي صارت الآن تضمّ ٨٥ فرعاً في العالم ومع هذا يقول: «كلّ يوم استيقظ من النّوم في السادسة صباحاً، وأطالع مجلّة فوربس وعندما لا أجد اسمي في قائمة أغنى أغنياء العالم، أذهب مسرعاً إلى العمل».

ماهر مقلد
القاهرة ٢٠١٦

الفصل الأول

وجه من الشرق

حياة الدكتور طلال أبوغزاله رجل الأعمال العربيّ مؤسّس مجموعة طلال أبوغزاله، تجربة تستحق أن تروى للأجيال بكلّ ما فيها من قيم نبيلة ونجاحات عالميّة فاقت كلّ التوقعات.

بدأ طريق العمل من تحت نقطة الصفر، وأضحى بمرور السنوات الشخصيّة المرموقة على مستوى العالم في دنيا المال والأعمال والمحاسبة والاستشارات والتعليم وبناء القدرات.

طلال أبوغزاله لم يعرف في طفولته معنىً للبكاء، وتحمّل في سنوات شبابه مسؤوليّات الكبار، وفي مرحلة جني الثمار كان لا يتحدّث عمّا أنجز بل يزيد من ساعات العمل لإدراك المزيد من النجاح.

يعيش طوال الوقت حالة العمل الدّائم بطموح، وتطلّعات كما لو كان يبدأ اليوم الأوّل في طريق العمل.

درّب عقله وجسده على العمل المستمر، وعدم انتظار أوقات الرّاحة.

مرّ بتجارب قاسية في سنوات طفولته الأولى، كانت فوق تحمّله وكفيلة بأن تطفئ كلّ ما بداخله من موهبة وذكاء ورغبة في النجاح والتعليم، لكنّه تغلّب عليها في كلّ المراحل الموجعة بالصّبر والعزيمة والثقة في النفس وعدالة السماء.

قصّته تبعث الأمل في النفوس، وتضرب المثل في كيفيّة الإصرار على بلوغ النّجاح، مهما كانت الصّعوبات التي تعترض الطريق.

هو صفحة مضيئة في التاريخ الإنسانيّ تحتاج جهداً كبيراً لتوثيقها ورصد أبرز مراحلها لا من قبيل تخليد الاسم أو إلقاء الضوء عليه، ولكن من باب تقديمه كقدوة وحافز للطموح، ونموذج للتحدّي والصّبر والعطاء، والأهم درس ملهم في تجارب الحياة لكلّ الطامحين في التميّز، وحصد المجد وتحقيق الثروة.

رحلة ممتدّة من النجاحات تلو النجاحات التي أبهرت كلّ من تعرّف على القليل من محطاتها، وعكست دوماً -وخصوصاً في المواقف الصعبة- نبلاً في التعامل معها بطريقة هادئة حاسمة، وكشفت عن جينات وراثيّة ترتبط بعمق الحضارة العربية، وتتميّز بالقدرة على العمل والثقة الدائمة بالنفس والتفوّق في كلّ منافسة شريفة بل اعتلاء المرتبة الأولى مهما كانت حدّة المنافسة وقائمة المتنافسين.

بداياته كانت مثل معظم أبناء فلسطين الذين هاجروا في الشتات قسراً بعد النكبة عام ١٩٤٨، لا تختلف قصّته في شيء.

تعدّدت وجهات الشتات في سائر البلدان لكن، تقاسم الجميع طعم المرارة وصدمة العمر.

معاناته جسّدت بعمق المعدن الأصيل للطّفل الفلسطينيّ الذي لا يعرف الانكسار وهو في أشدّ المواقف ضعفاً.

عائلته هجّرت إلى خارج الوطن قسراً، وبدون ترتيبات، ولا تدري ماذا يخبّئ لها القدر؟

وقتها كان دون العاشرة من العمر حيث ركب مع العائلة في باخرة معدّة لنقل البضائع أبحرت بهم إلى مدينة صيدا في جنوب لبنان حيث المنفى.

ما الّذي ينتظر هذه العائلة وغيرها من العائلات الفلسطينيّة؟ وأيّ طموح سيعيش في داخل الطفل طلال؟ الذي لا تملك عائلته من حطام الدنيا شيئاً بعد أن تركت من ورائها الثروات والأطيان والأملاك في مدينة يافا.

النظريّات العلميّة ترجّح في مثل هذه الحالة تعثّر المسيرة التعليميّة للطفل وتغيير مساره تماماً وفق ظروف بيئة الشتات القاسية.

على الرغم من حداثة سنّه، كان كمن يعرف، ومنذ ذلك التاريخ وهو يعيش التحدي، وفي داخله كلّ مشاعر الحنين تجاه وطن عزيز لا يبرح خياله، وفي الوقت نفسه لا تفارق الذاكرة تلك الفترة التي تجرّع فيها مرارة التهجير وقسوة اللحظة.

وتشكلت في أعماقه قيم جديدة للمثابرة والنّجاح.

وسيبقى حاضراً ومؤثّراً في النفوس ذاك المشهد الذي جسّده الطفل طلال أبوغزاله وهو دون الخامسة عشرة من العمر وهو يقف أمام باب المربيّ محمد سلام مدير مؤسّسة المقاصد الإسلاميّة في مدينة صيدا طالباً منحة مجّانيّة للدّراسة بالمدرسة الثانوية، وكانت الصّدمة عندما أجابه بأنّ جميع المنح نفذت ولم يعد هناك مجال لقبوله بالمجّان تحت أيّ مسمّى.

هنا يظهر بجلاء أوّل موقف يبرهن على شخصيّة الطفل الصغير الذي لا يعرف الاستسلام، ولا يقبل بنظرية الحل الواحد، وبعزّة النفس والبحث عن فرصة للتعليم حتّى لا تضيع الأحلام وتتبدّد الطموحات، أدار تفاوضاً بارعاً مع المربيّ الكبير، وهو الطفل لكنّه بدا كمن يملك في يديه كلّ الأوراق التي تعرض الأزمة وكل الأوراق التي تحوي الحلّ، وتعهّد في حال قبوله في المدرسة أن يكون ترتيبه من بين الأوائل على المدرسة (في) مقابل المنحة المجانيّة.

كان أوّل تعهّد من نوعه يستمع إليه مسؤول مؤسّسة المقاصد لم يفكر طويلاً، وأمام هذه الثقة العالية والرغبة الجامحة لدى التلميذ الصغير في مواصلة التعليم وافق محمد سلام على قبوله.

كلّ من يستمع إلى طلال أبوغزاله وهو يروى هذه القصة بالغة التأثير وكيف وقف أمام باب الرجل؟ وهو مازال صغيراً بما يجسّد من ضعف إنسانيّ وقلّة حيلة، حتماً يتعاطف معه إلى أبعد حدود، ويدرك منذ اللحظة الأولى مكامن القوّة في شخصيّته برغم حداثة السن وقلّة الخبرة.

مارس ببراعة فنون علم التفاوض قبل أن يعرفه أو يتلقّى دروساً فيه، وقدّم معادلة في فنونه من خطوتين لا ثالثة لهما فحينما يتعهّد بأن يكون الأوّل في الترتيب على المدرسة مقابل المنحة المجانية لن يتردد المسؤول في قبول المعادلة وفق ضميره المهني، وأمام الثقة بالنفس التي بدا عليها التلميذ الّذي لم يتحدّث

عن أيّ شيء آخر سوى رسالة التعليم والتفوّق وأغلق الباب أمام كلّ الاعتبارات الأخرى التي قد تكون مساعدة في حالته.

لم يتحدّث عن ظروفه الشخصية ولا عن مأساة التهجير على الرغم من حضورهما الكبير في وجدان كلّ عربيّ في ذلك الوقت وإلى الآن، ولكنه قدّم شهادة ممهورة بالثقة والنبوغ والأمل في أجيال واعدة.

وتوالت عبر سنوات العمر المواقف التي كانت تكشف في كلّ مرّة عن قوّة شخصيته، وتمسّكه الدائم بخيط الأمل الرفيع مهما كانت التحديات صعبة، ونجح في أن يعبر بحياته في مرحلة البدايات إلى شاطئ العمل والنجاح بعيداً عن الإحباط، حتى صار طلال أبوغزاله ابن فلسطين والعرب يمتلك مجموعة عالميّة بكلّ ما تحمل من معنى للكلمة، تنافس أكبر الشركات في الدنيا، بل تتقدّم عليها في الترتيب في معايير الكفاءة والجودة والثقة والتطوير، وهو النجاح الذي جعلها تستحوذ على النصيب الأكبر من العملاء أصحاب أشهر العلامات التجارية.

هو أحد روّاد علم المحاسبة في العالم وحقوق الملكيّة الفكريّة، وصاحب المبادرات المتنوّعة التي ساهمت في تقديم الحلول الناجحة للكثير من المشاكل التي كانت تعترض طريق التقدم في الدول سواء المتقدّمة منها أو النامية من خلال المناصب المهمّة التي شغلها في منظّمة الأمم المتحدة وقدّمت حلولاً ذكيّة للكثير من هذه المشكلات وتمّ تنفيذ الحلول في زمن قياسي.

تحتار حتماً عندما تقلّب في صفحات تاريخ هذا الرجل، ومبعث الحيرة يأتي من تنوّع اهتماماته، ومجالات عمله، والإجادة التي يتميز بها في كلّ تخصّص يمارسه بنفس المستوى من النجاح.

دوماً يتفاخر بكونه رجلاً عصامياً بنى نفسه، وكان ينظر في كلّ الأوقات إلى الأمام، يتعلّم من مرارة اللحظة، لا يتوقّف أبداً أمام ما ضاع أو خسر، بل يبدأ من جديد بنفس الهمّة والثقة دون أن ينسى في أيّ وقت ذلك الحلم المشروع الذي يحيا من أجله.

اختار مهنة المحاسبة والمعلومات والاستشارات للفضاء الذي يعيشه ويبدع فيه، وأسّس مجموعة عالميّة في مجال الخدمات المهنيّة والتعليم وبناء القدرات

هي مجموعة طلال أبوغزاله التي انطلقت في عام ١٩٧٢ من دولة الكويت، والآن تنتشر مكاتبها في أهمّ وأشهر المدن والعواصم العالميّة، وباتت علامة لا تخطئها العين في العواصم والمدن الكبرى، إنها المؤسسة التي تقف بكفاءة خلف نجاحات كبريات الشركات العالميّة بالدعم الفني والاستشارات المهنية وتدقيق الحسابات وحفظ حقوق الملكيّة الفكريّة والاستشارات الفنية والتدريب وتقنية المعلومات وبناء القدرات، ودراسات الجدوى والترجمة المعتمدة.

اهتماماته كانت ولا تزال أن يمارس العمل الّذي يعتقد أنه يفيد الإنسانية، ولا يفصل بين تحقيق ذاته، وتلك القناعة، وهي معادلة مشروعة في الحياة، ثمارها تظهر بوضوح في تجارة الخدمات وتقنيّة المعلومات.

كان حريصاً منذ اللحظة الأولى، التي بدأ فيها انطلاقته، على أن يدخل غمار المنافسة الشريفة مع الكبار في العالم حتى يثبت لنفسه أولاً أنّه يقف على نفس المكانة ويمتلك كلّ الدوافع والمقوّمات، ثمّ لوطنه العربي من المحيط إلى الخليج أنّ قدرات المواطن العربي بغير حدود.

أدرك مبكراً قيم العلم والعمل وطوال مسيرته لم يفصل بينهما فلا علم بلا عمل ولا عمل بلا علم في رحلته أو عاداته.

ومن هنا كانت مؤسسة طلال أبوغزاله العالمية التي تحمل بفخر اسمه.

إمبراطورية بمعنى الكلمة صنعها بجهده وكفاحه، ولتميّزها الفائق في مجالاتها كانت أول مؤسسة من مؤسسات القطاع الخاص التي توقع معها منظمة الأمم المتحدة اتفاقا لتطوير تقنية المعلومات في الدول النامية.

هذه الثقة العالمية جاءت لاعتماد مؤسس الإمبراطورية المعايير العالمية في بيئة العمل داخلها، والحرص الشديد على أن تكون في مقدمة المؤسسات التي تفتح أبوابها على مصراعيها أمام كلّ تطوّر جديد وتطبيق أحدث النظم الحديثة في علوم الإدارة وتقديم الخدمات.

ارتبط اسمه بأكبر المنظمات الدولية كواحد من الرواد في العالم الذين حفروا في صفحات التاريخ طريقاً وعراً بصبر وتنظيم.

حاز على منصب رئيس لجنة المعايير الدولية للمحاسبة في منظمة الأمم المتحدة ومن حوله يجلس كوكبة من كبار خبراء المحاسبة في العالم لوضع ملامح الطريق للمهنة عالميا ببصمات طلال أبوغزاله ابن فلسطين المحتلة.

لم يكن هذا الموقع القيادي هو الأبرز الذي وصل إليه، بل هو واحد من بين عشرات المناصب العالميّة التي يستحقّ كلّ موقع منها وقفة طويلة للتعرف على كيف صعد إليه؟

في مرّات عديدة يتمّ انتخابه لهذه المناصب من بين أسماء وقامات عالميّة تقدّمت للمنصب، وفي مرّات كثر يتم اختياره بالرضا التام.

يحدث هذا، وهو لا يمثل جامعة من الجامعات التي يكون لها حقّ ترشيح الأسماء، كما لم يكن مدعوماً بترشيح من دولة، أو تقف من ورائه منظومة تقدّم له الدعم وتنسج العلاقات من أجل حشد التأييد أو ضمان نسب التصويت التي تصعد به إلى المواقع الرفيعة.

في كلّ مرة تأتي إليه المناصب كما لو كانت تناديه من بعيد وتعرف أنّه يستحق.

يعتقد كثيراً في ما قاله العالم الأمريكي من أصل نمساويّ «بيترفردناند دراكر» وهو الأب الروحي لعلوم الإدارة في العالم، حيث قال: «لعلّ الدرس الأكثر أهميّة هو أن المنصب لا يعطي امتيازاً أو يمنح قوة، وإنّما يفرض مسؤولية».

يدرك أبوغزاله أنّ المناصب مسؤوليّة والتزام، ويدرّب نفسه في كلّ الأوقات على أن تظلّ شخصيّته كما هي لا تعرف من بعيد أو قريب فتنة الغرور أو الشعور بالذات بالشكل الّذي يلامس الحدّ الفاصل بين الرضا والتّعالي الخادع، وفي كلّ مكان يروي قصص المعاناة التي مرّ بها ويرى فيها مدعاة للفخر والاعتزاز.

ويقول عن مشاعره الخاصة: أرى في هذه المناصب رسالة ومهمة لأداء الواجب المهني، وعندما جاءتني الفرصة كأوّل عربي، يشغل منصب رئيس الائتلاف العالمي لتقنية المعلومات والاتصالات والتنمية التابع للأمم المتّحدة كنت أشعر بحجم المسؤولية وقدرها، ويتكرّر معي نفس الإحساس بجسامة المهمّة في كلّ المناصب التي تشرّفت بها وهي أهمّ مجالس المهنة بالعالم - كالاتحاد الدولي

للمحاسبين القانونيين والاتّحاد الدولي لمبادئ المحاسبة - التي تضع مبادئ ومعايير المحاسبة لكلّ العالم، وكذلك عندما كنت على رأس صياغة معايير التدقيق للجنة الدولية للخبراء بالأمم المتحدة أي لجنة التأهيل المهني الدولي لوضع نظام للشهادات المهنية على مستوى العالم.

العديد من المناصب التي تقلّدها لم تكن متاحة لأيّ عربي أو أي شخصية من العالم الثالث، ويقول أبوغزاله: كنت أشعر دائماً بأنه لابدّ من الوصول إلى هذه المناصب، ذلك أنّ الإنسان العربيّ قادر، والأمثلة كثيرة، إنّ إيماني بوجود عربيّ على قمّة هذه المؤسسات ينهي الادّعاء الإسرائيلي الذي يحاول باستمرار التشكيك في قدرة العرب والفلسطينيين، وأنا أؤمن أيضاً بأن الإنسان العربي يجب أن يكون فخوراً بعروبته وتاريخه ومجده، كونه هو أساس الحضارات، وهو أساس العلوم البشرية كلّها، وابن الأرض التي نزلت فيها كل الأديان السماوية.

ويقول من الحكمة في الحياة، أن نستحضر «جمهورية أفلاطون» التي ذكر فيها أنَّ المرء لا يمكن أن يصل إلى أعلى المراتب ما لم يقض حياته كلّها في التعلّم والتدريب وانتهاج السلوك الأخلاقي.

ومن واقع تجربتي في الحياة بعد عقود قضيتها في التعلم والعمل دون راحة أو ضيق صدر، أرى أنَّ ما قاله أفلاطون الفيلسوف اليونانيّ وهو أحد أعظم الفلاسفة، دعوة من جوف التاريخ القديم لكنّها ممتدّة الصلاحية والقيمة في كلّ الأزمان والعصور، فيها جمع خواص النجاح لكلّ من يرغب في ذلك وحدّد الطريق بوضوح بما في ذلك العيش في المدينة الفاضلة كما تمّ التعارف عليها، وهي مدينة تمنّى أن يحكمها الفلاسفة وذلك ظناً منه أنّهم لحكمتهم سوف يجعلون كلّ شيء في هذه المدينة معياريّاً، وبناءً عليه ستكون فاضلة.

كفاح الطفولة


طلال أبوغزاله - ١٩٥١

كلّ من يستمع إلى قصّته يتوقّف بنوع من التأمّل الكبير، عند كفاحه في سنوات الطفولة ويتساءل من أين جاء بكلّ هذه الصفات وهو مازال طفلاً؟ وكيف تولّدت في أعماقه القدرة على تحمّل المشي مدّة أربع ساعات يوميّاً في رحلة الذهاب والإياب للمدرسة تحت المطر الغزير في فصل الشتاء، ولهيب أشعة الشمس الحارقة في فصل الصيف؟ ثم يكمل بقية ساعات اليوم في العمل بأجر لتحسين ظروف المعيشة ومعاونة الأسرة في تدبير شؤون الحياة، وفي نهاية العام الدراسي يحصد المركز الأوّل بين كلّ أبناء فلسطين ويفوز بمنحة منظمة الأونروا للدراسة المجانية في الجامعة الأمريكية ببيروت.

هل هو الجين الوراثي أم محنة التهجير أم تكوينه الشخصي؟

قد تكون كلّ هذه الأسباب أو بعضها أو غيرها، لكنّ الثابت إذن أنّه نموذج ملهم في الحياة تنطبق عليه عبارة المؤرّخ البريطاني الشهير «بيتر مارشال» التي تقول: «عندما تشتاق للحياة بدون صعوبات، تذكّر أن السنديان ينمو ويصبح أكثر قوة إذا تعرّض للرياح، والألماس يتكوّن تحت الضغط».

ويقول الإمام «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه في الفضائل العائلية: «إذا كرم أصل الرجل كرم مغيبه ومحضره».

يعتزّ كثيراً طلال أبوغزاله بفضائله العائليّة، ويستدعي دوماً من الذاكرة سواء عن تلك الفترة التي قضاها في يافا أو سنوات الهجرة في لبنان، مواقف لوالده وأخرى لوالدته تكشف عن عراقة النّسب العائلي لهما.

لكن يبقى الحديث كما هو كيف تشكّلت كلّ هذه القيم في عقله خلال سنوات الطفولة؟ وحافظ عليها بنفس الهمّة حتى تخرّج من الجامعة الأمريكيّة ببيروت بمرتبة الشرف الأولى، على الرّغم من قسوة سنوات البدايات التي كانت تحاكي المستحيل.

طفل صغير يستشرف المستقبل ويفعل كل ما في وسعه حتى يحافظ على ثباته كما لو كان في سنّ الكبار.

الدول العربية تتعامل مع طلال أبوغزاله ومجموعته بتقدير واعتزاز، في كلّ دولة يحظى بمعاملة المواطن حتى دون أن يحمل جواز السفر، وتمنحه أهم الألقاب، وتحتضنه اعتزازاً باسمه العالمي وتقديراً لنبوغه واعترافاً بخدماته للأمّة العربيّة وتقدّم الدول له كلّ المساندة كونه رائداً في مجاله، فقد تجاوز الإطار العربيّ وأصبح شخصيّة عالميّة بعد أن تقلّد مناصب عالميّة رفيعة في مجالات المحاسبة والملكيّة الفكريّة.

وجه مشرق من الشرق كان يصعد إلى القمة بعلمه وخبرته وتواضعه وتقدير أهل الاختصاص لكفاءته، وهو يتحدّى كلّ الظروف، ويحارب على كل الجبهات بسلاح المعرفة والتخصص.

انتُخِب رئيساً للائتلاف العالمي للأمم المتحدة لتقنيّة المعلومات والاتصالات والتنمية، وهو حدث يختصر للعرب المسافات البعيدة التي كانت تفصلهم في العصر الحديث عن تطورات تقنية المعلومات والإنترنت.

تنبّه منذ زمن بعيد للأهميّة البالغة لتقنية المعلومات ونجح في أن تصبح مجموعة طلال أبوغزاله الأولى في العالم في مجال حماية الملكيّة الفكريّة بما تمثّله من قيم يعترف بها العالم، فالملكيّة الفكريّة تحمي وتصون إبداعات العقل من الاختراعات والمصنّفات الأدبية والفنيّة، والتصاميم والشعارات والأسماء والصور المستخدمة في التجارة.

والمفارقة الدالة هنا التي تظهر النقيضين هي أنّ ابن فلسطين مؤسّس مجموعة طلال أبوغزاله يمتلك أكبر شركة في العالم في مجال حماية الملكيّة الفكريّة بينما تصنف إسرائيل -أكبر سلطة احتلال- بأنّها تمارس كلّ أنواع القرصنة لحقوق الملكيّة الفكريّة.

في فبراير ٢٠١٠ قدّم للأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون فكرة إعداد منظومة لتقنية المعلومات والاتصالات من أجل التنمية في الدول النامية، وهو اهتمام أصيل لديه بالسعي المتواصل من أجل تقديم كلّ ما يمكن للنهوض بالدول النامية.

ترأّس العديد من المؤسسات والهيئات والمجالس أبرزها المجمع الدولي العربيّ للمحاسبين القانونيين الّذي تأسّس في المملكة المتّحدة ١٩٨٤، كما يرأس المجمع العربي للملكيّة الفكريّة منذ تأسيسه في ألمانيا عام ١٩٨٧، كما ترأس مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية - لجنة المحاسبة والتحالف العربي لصناعة الخدمات، والمنظمة العربية لضمان الجودة في التعليم، ورئيس جهاز صنع القرار لمجموعة أيفيان، جنيف وهي مجموعة للفكر وساحة للحوار وبناء جسور الثقة ما بين اتجاهات الرأي المتعددة ومساهمي المشاريع.

كما تمّ اختياره ضمن أفضل ٢٥٠ مخططاً استراتيجيّاً في مجال الملكيّة الفكريّة على مستوى العالم من قبل مجلة الأصول الفكرية، وهو تتويج لمكانته بعد أن تمّ اختياره عضواً في قاعة مشاهير الملكيّة الفكريّة للدور البارز الذي لعبه في تطوير قوانين وممارسات الملكيّة الفكريّة في العالم العربي.

وقد يكون تاريخ ١٦ سبتمبر ٢٠٠٧ دلالة مهمّة على مدى تقدير العالم له حيث تمّ اختياره في ذلك اليوم بشيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكيّة كأوّل عربيّ، بل أوّل شخصيّة من خارج مجموعة الدول الخمس الكبار، ينضمّ إلى قائمة الشخصيّات الأكثر أهميّة في مجال الملكيّة الفكريّة التي ضمّت العالم «توماس ألفا إديسون» مخترع المصباح الكهربائي، و«فيكتور هوجو» الأديب والشاعر الفرنسي الشهير، الذي يعدّ من أبرز أدباء فرنسا في الحقبة الرومانسيّة، وترجمت أعماله إلى العديد من اللغات الحية. حيث أثّر «فيكتور هوجو» في العصر الفرنسي الذي عاش فيه وقال «أنا الذي ألبست الأدب الفرنسي القبّعة الحمراء» أي قبّعة الجمال.

وتضمّ القائمة أيضاً الرئيسين توماس جفرسون، ثالث رئيس للولايات المتحدة وأحد الآباء المؤسسين لها، والكاتب الرئيسي لإعلان الاستقلال وجيمس ماديسون رابع رئيس الذي عُرِف بأبي الدّستور الذي تمّ وضعه في عام ١٧٨٧.

جاء اختياره ضمن القائمة المرموقة نظراً لإسهاماته المؤثّرة في تقديم كلّ أشكال الدّعم للدول والحكومات وبخاصّة العربيّة في مراجعة وصياغة القوانين والنظم التي تعتني بحماية وصون حقوق الملكيّة الفكريّة وإصداره المجموعة الكاملة لقوانين الملكيّة الفكريّة العربيّة وترجمتها إلى اللغة الإنجليزية وإصداره أيضاً قاموس أبوغزاله للملكيّة الفكريّة كما أصدر في عام ١٩٧٨ أوّل قاموس محاسبي عربي انجليزي، صدرت منه النسخة الثانية عام ٢٠٠١ كما أصدر مجموعة من المعاجم الفكريّة، والبراءات، وتقنيّة المعلومات والاتصالات والمعجم القانوني ومعجم المتلازمات اللفظية.

لم يكن هذا الاختيار، وحده الذي حمل التقدير لشخصيته ومكانته. كانت هناك محطّات أخرى في سجل التقدير حيث جاء اختياره ضمن الشخصيات الخمسمائة الأكثر نفوذاً في العالم العربيّ في مجال المال والاستثمار.

كما اختاره المركز الإسلامي الملكي للدراسات الاستراتيجيّة بالأردن ضمن قائمة «أكثر ثمان وعشرين مسلماً في قطاع الأعمال تأثيراً في العالم».

وحاز التصنيف بتميّزه وتأثيره في العالم ضمن قطّاع الأعمال في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ولدوره في إدخال مفهوم الملكيّة الفكريّة في الوطن العربي.

وكان جديراً بتكليف المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة بالرئاسة المشتركة لأول شبكة عالميّة للترويج للتكنولوجيا الرقميّة من أجل التحضر المستدام مع الدكتور «جون كلوس»، المدير التنفيذي للأمم المتحدة للتجمّعات البشريّة وأحد الدعاة إلى التحضّر العالمي.

وجاء التكليف تتويجاً لدوره الريادي في رئاسة فريق عمل الأمم المتحدة المعني بتكنولوجيا المعلومات والاتصالات، والاتّفاق العالمي للأمم المتحدة والتحالف العالمي لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات والتنمية.

ويرى أبوغزاله أن هذا الموقع من أهم المواقع التي تقلّدها وهي رسالة نبيلة تهتم بالحفاظ على نقاء الهواء في الكرة الأرضيّة، بكلّ ما يعني للإنسان والنبات والحيوان، فضلاً عن أنّها تهدف إلى مكافحة تغيّر المناخ واختيار الأدوات

والآليّات الملائمة للحفاظ على نقاء الهواء وتقديم مناطق حضرية أكثر أماناً وصحّة حول العالم.

ويقول: كمواطن أرى العالم كما هو ولكن -إضافة إلى ذلك- يجب أن نتخيّل العالم كيف سيصبح في حال الانشغال عنه، وعدم وضع الضوابط التي تحدّ من الانبعاثات الحراريّة والتلوّث. والأكثر أهميّة هو أن نتخيّله كما يجب أن يكون، كذلك فالله سبحانه وتعالى خلق الكون بميزان وورث الإنسان في الأرض لإعماره وفق قوانين الطبيعة مع الحفاظ عليه.

والإنسان مُطالب دوماً بالتفكير والاختراعات فالعالم الأكثر ابتكاراً هو الأكثر تحضّراً وفائدة للإنسانيّة كلّ الابتكارات هي إرث للبشريّة أينما وجدت، وفي كلّ زمان ومكان والابتكارات حتماً ستؤدّي إلى حلّ مشاكل بشريّة طال أمدها مثل الفقر والمرض والجهل، والوصول إلى هذا الهدف يتأتّى بتخطيط المدن بذكاء واستدامة في ظلّ رؤية بعيدة المدى وقيادة قويّة ومشاركة كلّ أصحاب المصلحة بما في ذلك قطاع الأعمال.

لقد اختارته «مجلّة المحاسبة الدولية» البريطانية ضمن قائمة أبرز مائة شخصيّة محاسبيّة في العالم.

وكرّرت نفس الأمر لجنة بريتون وودز بعد أن اختارته ليصبح أحد أعضاء اللجنة. وقالت في مبرّرات اختياره أنّ عضويّة الدكتور طلال أبوغزاله تشكّل «إضافة ذات قيمة» بصفته أحد أكثر القادة تأثيراً في العالم العربي وعلى السّاحة الدوليّة، ولما له من إنجازات وإسهامات بارزة في مجالات التعليم والمحاسبة والملكيّة الفكريّة وإدارة الأعمال والتجارة وتكنولوجيا المعلومات والاتّصالات والعلوم والتقنيّة والقانون وغيرها من المجالات ذات العلاقة.

تُوِّج طلال أبوغزاله – ابن مدينة «يافا» أقدم المدن التاريخية بفلسطين المحتلة، التي تبعد عن مدينة القدس المحتلة نحو خمسة وخمسين كيلومتراً تقريباً- بلقب «المفكر العربي»، بعد أن فجّر في كلّ موقع تولّى مسؤوليّته طاقات من الجهد والإصرار، وأصبح اسمه بمثابة الرمز الذي يفتخر به في مجالات الخدمات والاستشارات وبراءة الاختراع في الوطن من المحيط إلى الخليج.

لم يصل إلى تلك المناصب أي مواطن من خارج الولايات المتحدة الأمريكية، وأوروبا، وهي مناصب رفيعة تتطلّب شروطاً ومواصفات قياسيّة في من تسند إليه أو من يتم انتخابه لها.

ومنح العربي العالمي لهذه المواقع وهجاً كبيراً، وحيويّة لافتة، بتواضع محمود، وضمير مهنيّ.

حظي في كلّ هذه المواقع المرموقة التي شغلها -وكانت بعيدة بالقياسات المنطقية عن دائرة العرب- بأكبر دعم من علماء وخبراء من خارج الوطن بل من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، إيماناً منهم بكفاءته وقدرته على أن يدير ويضيف للعلم والبشرية طاقات جديدة وأفكاراً مبتكرة وعلوماً غير مسبوقة.

ما حققه من نجاحات على كلّ المستويات في مشوار حياته سواء على صعيد العمل أو الثروة أو المكانة العالميّة يندرج تحت باب الإنجازات غير المسبوقة بل ربمّا يقترب من الأساطير التي تمشي على الأرض.

لاجئ صغير يصعد إلى القمة في مجال تجارة الخدمات ويبني إمبراطورية تمتدّ مكاتبها في كلّ عواصم العالم بفكر ونظام غير مسبوق.

هناك نظريّة علميّة في علم الاجتماع تفترض أنّ الرجل العظيم لديه القدرة على القيادة وأن القادة العظماء يولدون بهذه المواصفات ولا يُصنَعون ويقول المؤرخ توماس كارليل إن تاريخ العالم ليس إلّا سيرة الرجال العظماء ويرى عالم الاجتماع هربرت سبنسر أنّ القادة هم نتاج المجتمعات التي عاشوا فيها.

لم يتوقّف تفكير أبوغزاله في أيّة لحظة عن حتميّة المضيّ قدماً في مواصلة حلمه الأثير في أن يقدّم نموذجاً للكفاءة العربيّة في مواجهة الآخر بالمعايير العالميّة.

يؤمن بعطاء الشباب وبدا في نظر كلّ من تقرّب له صاحب مدرسة في فنون الإدارة، وفي الوصول إلى الهدف عبر أقصر الطرق وبالوسائل العلميّة.

محطات فارقة في حياته تجسّد بجلاء كيف يمكن أن ينجز الإنسان ويحصد

النجاح، والريادة ليس في محيطه العربيّ ولكن على مستوى قارّات العالم، حيث تكون التحديات كبيرة والمنافسات محكومة بمعايير الدقة والإبداع.

يقول: تعلّمت الكثير من الحياة وأهم ما تعلّمت منها هو ألّا يعتقد الإنسان أنّه حقّق النجاح في أيّ وقت، طبيعي أن يشعر بالرضا والقناعة عمّا أنجز لكن يتوجّب عليه أن يتهيّأ من جديد لمواصلة الكفاح، فالحياة لا تتوقّف عند مشروع أو إنجاز، وفيها يوجد الفشل والنجاح، ولا يعني الفشل النهاية فمن رحم المعاناة تتحقّق الحياة، وكما قالت الحكمة المعبّرة «إذا رماك الناس بالطوب فاجمع هذا الطوب لتسهم في تعمير بيت، وإذا رموك بالزهور فوزّعها على الذين علّموك الذين أخذوا بيدك وأنت تكافح عند سفح الجبل».

ويصف أبوغزاله مسيرته عبر السنين فيقول: تعني لي الانتصار على المعاناة ذلك أنّ الظروف الصعبة التي واجهتها في مرحلة الطفولة جراء نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ وتهجير أهلها قسراً، فرضت عليّ ومنذ كنت طفلاً في العاشرة من العمر ظروفاً معيشيّة استثنائيّة كما برزت أمامي مسؤوليّات أخرى تجاه عائلتي، فامتهنت عدّة مهن، وفي مرحلة ما عملت بترجمة الكتب، وقبلها عملت بائعاً جوّالاً، وقادتني الظروف الصّعبة للعمل في سوق الخضار في ساعات الفجر الأولى قبل التوجُّه إلى المدرسة. هذه الأعمال وإن كانت صعبة على فتى صغير، لكنّها لم تنل من عزيمتي بقدر ما أعطتني خبرة كبيرة في كيفية التعامل واكتساب الرزق وهو الأمر الذي أفادني في المستقبل أيمّا إفادة.

حلمه الأثير

حلمه الأثير كان في إطلاق مشروع موسوعة المحتوى العربي على الإنترنت واختار لها اسم «تاجيبيديا» تكون في مقابل المحتوى الآخر «ويكيبيديا» الّذي سهّل مهمّة البحث والمعرفة وأنهى عصر الموسوعات الورقيّة التي كانت تملأ الرفوف، ومن الملاحظات على هذا المحتوى أنّه يضع معلومات عن العرب تحتاج إلى أن تشارك فيها خبرات عربيّة من باب التدقيق وحسن التوصيف، وبعض هذه المعلومات عن العرب واسعة الانتشار على الموسوعة العالميّة تحمل بقصد أو بدون قصد أخطاء تاريخيّة بعضها يغيّر الحقائق سواء المرتبطة بالمعلومات الجغرافية أو التاريخية.

ويقول على المستوى الشخصي: كنت قد رفعت دعوى قضائيّة ضدّ موقع جوجل لأنّه يضع في بيانات التعريف الخاصة بي مكان ولادتي تل أبيب بدلاً من يافا، وإسرائيل بدلاً من فلسطين، وبعد مراسلات قضائيّة وتقديم جميع الوثائق التي تثبت ولادتي في يافا استبدلوا تل أبيب بيافا لكنّهم ابقوا على إسرائيل لأنّ البرنامج لديهم يقوم بتحويل اسم فلسطين تلقائيّاً إلى إسرائيل، وهذه قضيّة يجب أن تحسم ويكون اسم فلسطين في مكانه.

وبدوري لن أتوقف عن مواصلة الجهد من أجل تصويب الأمر وتدوين الحقيقة.

ولكونه شخصيّة لا يكتفي بمجرد الحلم أو الكلام عن المشروعات التي يجب أن تتحقّق مهما كانت صعوبات تنفيذها أو حجم استثماراتها لكنّه يخطّط وينفّذ بروح الفريق وفي كلّ مرّة يبثّ الحماس في المشاركين، أطلق في ٢٠١٣ من العاصمة اللبنانيّة بيروت خلال مؤتمر صحفيّ عقده في مبنى نقابة الصحافة شرارة البدء في مشروع الموسوعة الالكترونية العربيّة الأولى «تاجيبيديا» لتبادل المعلومات، ويومها قال أبوغزاله: إنّ الموسوعة هي قاعدة بيانات لتبادل المعلومات ذات محتوى عربيّ ستضمّ أكثر من مليون موضوع باللغة العربية وثّقها خبراء عرب للتداول في العالم وتكون تحت تصرف كلّ من يبحث عن الحقيقية.

وموسوعة «تاجيبيديا» في شرح مبسّط هي عمل جبّار وقيمة مضافة للّغة العربيّة تشابه فكرة موقع «ويكيبيديا» «الموسوعة العالميّة الحرّة على الإنترنت»

على صعيد المادّة العربيّة، وتسعى لمنافستها باعتبار أنّ الأخير يضمّ أقلّ من ثلاثمائة ألف صفحة باللّغة العربيّة.

وقدّرت تكلفة المشروع بنحو عشرة ملايين دولار كمصاريف مباشرة أمّا مصاريف الدّعم فتصل لعشرات الملايين، ويعتبر طلال أبوغزاله أنّ ما يعطي دفعاً لـ «تاجيبيديا» هو المؤسسة التي تقف خلفها -يقصد إمبراطورية أبوغزاله مؤسّسة حياديّة غير حكوميّة- وهذا يمنحها حيّزاً واسعاً من الاستقلاليّة.

اهتمامه بدعم وجود اللغة العربية على الشبكة الرقميّة يأتي بعد دراسة أجراها حول نسبة محتوى اللغة العربية على الإنترنت وتبيّن أنّها ضئيلة مقارنة باللغات الأخرى وقياساً بعدد الناطقين باللغة العربية في العالم. حيث تحلّ اللغة العربيّة المرتبة الرابعة من حيث النّاطقين بها بعدد يبلغ ٤٢٢ مليوناً في حين تأتي اللغة العربية في المرتبة الثالثة عشرة من حيث المحتوى المتوافر على الإنترنت، إذ تُشكّل اللغة العربيّة ما نسبته أقلّ من ١٪ من المحتوى الموجود على الإنترنت.

ويقول: أحمد الله تعالى على كلّ شيء، ولكنّني دائماً أقول: من موقع المسؤولية، أدرك أنّنا كلّما حقّقنا إنجازاً سعينا لغيره، واليوم نعيش في عالم دائم التغيّر والتطوّر، من هنا يتوجّب علينا دائماً ألّا نحلم فقط بل نعمل على مواكبة التغيير في التعليم والأعمال وكلّ نواحي الحياة.

أمّا عن حلمي، فإنّني أتطلّع إلى اليوم الذي يصدر فيه جواز سفر عربي موحّد لكلّ مواطن عربي، وأن تكون هناك دولة واحدة بجواز سفر بلا حدود ولا عقد، ولا مشاكل، وأن نبني السوق العربيّة الواحدة والمستقبل العربي الواحد. وليس أمامنا من مفرّ إلّا قدرنا وهو القدر العربي الواحد.

ويقول أعتبر نفسي من المتعصّبين للّغة العربية ومن المؤمنين بها إيماناً لا حدود له، وقد أنتجت ستة قواميس، أذكر هنا واقعة حدثت معي وهي أنّ الاتّحاد الأوروبيّ في بروكسل كان قد دعاني للمشاركة في مؤتمر حول البحث العلمي، وطلب منّي أن ألقي كلمة في جلسة الافتتاح، وقبل أن ألقي كلمتي قال المتحدّث الرئيسي أنّ الاتّحاد الأوروبيّ يودّ التعاون مع مجموعة - طلال أبوغزاله- لإنشاء روابط في البحث العلمي بين الدول العربية والدول الأوروبية

في هذا المجال، وقال إن تجربتهم في التعاون بينهم وبين دول المتوسّط أي شمال أفريقيا لم تكن ناجحة، وسأل إن كنت مستعدّاً لكي أقود عمليّة ربط البحث العلمي في منطقتنا مع الاتحاد الأوروبي.

هذا الكلام حرّك في داخلي مشاعر أخرى، وصرفت النظر عمّا كنت أريد أن أتكلّم عنه، وقلت إنّ الاتحاد الأوروبيّ أخطأ حين اتّبع أسلوب الانفراد بكلّ دولة وحدها؛ إذ كان يريد التوقيع مع كلّ دولة من هذه الدول على حدى، ولكن دون جدوى. وقلت إنّ الأسلوب الصحيح هو أن يتعامل من منطلق أنّنا منطقة مثل منطقة الاتّحاد الأوروبي، فقلت إن أردتم تعاوناً منّي فلن يكون إلّا عربيّاً، وعلى هذا فإنّه عليّ أنْ أبدأ بإنشاء شبكة بحث علمي عربي تربط الدول العربية فيما بينها وتقوم هذه الشبكة بالتّنسيق مع شبكة البحث العلميّ في أوروبا، تماماً كما فعلتم في التّنسيق بينكم وبين أمريكا، وبيّنت لهم أنّ هناك جامعة للدّول العربية. وقد انتهى المؤتمر باتخاذ القرار كما طلبت، وهذا يدلّ على الهامش الموجود في المنظّمات الدوليّة، فإن كنت تريد القبول فاطرح ما هو منطقي.

وكان من نتائج ذلك إنشاء المنظّمة العربيّة للبحث العلميّ تحت مظلّة جامعة الدول العربيّة، وأفتخر برئاسة هذه المنظمة إلى جانب الرئاسة الفخريّة لأمين عام الجامعة وبدأ المشروع وهو بالطبع غير ربحي، وقد أعلنّا في تونس عن إقامة خطّ الاتصال إلى الاتحاد الأوروبي ممتداً من الإسكندرية كنقطة تجمّع عربي إلى لندن، وهو خط إنترنت خاص وعلى سعة وطاقة كبيرة، وأهميّته تأتي من أنّ جميع الجامعات العربيّة ومراكز الأبحاث العربيّة تستطيع أن تستعمله.

تنبّه طلال أبوغزاله قبل ما يزيد على نصف قرن من الزمان إلى الأهمية القصوى للكمبيوتر كجهاز لن يكون بمقدور أحد الاستغناء عنه أو عدم التعامل معه، وحصل على أوّل دورة تدريبيّة في مجال الكمبيوتر عام ١٩٦٢ في شركة آي بي إم في هاي ويكام، خارج لندن، والأيام أثبتت بعد النظر والقيمة التي لا تضاهى بأي شيء مع علم الكمبيوتر.

وعندما تسأله من أنت؟ يجيب في كلمات مختصرة أنا مازالت تلميذاً أدرس في رحاب العلم، كلّ يوم أتعلم من الحياة ومن العلم وأعتزّ وأنا في مثل هذه السن المتقدّمة من العمر بأنّني شغوف بالبحث والتعليم أكثر مما كنت عليه بالأمس، ولهذا أقضي كلّ يوم تقريباً أكثر من أربع ساعات متواصلة في الدراسة وليس

مجرّد القراءة ما يتيح لي الفرصة للإلمام بالموضوعات التي يجب أن يكون المتخصّص في علوم الاقتصاد والمحاسبة ملمّاً بها، والمشكلة التي تواجهني هي بكل تأكيد ما يعاني منها معظم رجال الأعمال الكبار في العالم، بأنّ عدد ساعات اليوم أربع وعشرون ساعة لا تكفي حجم المهام التي يجب إنجازها، ومنها ما يحتاجها الإنسان من ساعات للنوم لا يمكن الاستغناء عنها وساعات للراحة.

يتوقّف بكثير من التأمّل والاهتمام أمام اختراع أوّل جهاز كمبيوتر في عام ١٩٤٦ ويقول: هذا الجهاز في ذلك الوقت كان ضخماً في الحجم والشكل.

ويعقد مقارنة لإظهار التطوّر المذهل الذي حدث في ثورة المعلومات والكمبيوتر على مستوى العالم فيقول لو كان هذا التطوّر قد تحقّق بنفس النسبة في صناعة السيّارات مثلاً لكان يكفي جالون واحد من البنزين حتّى تسير السيارة مسافة خمسمائة مليون كيلومتر، وأقلّ سرعة للسيارة ستكون خمسين ألف كيلومتر في الثانية.

هذا التطوّر المذهل في صناعة أجهزة الكمبيوتر يراه ربمّا أهمّ من الثورة الصناعيّة التي قادت العالم إلى تغيير جذري كبير في بعض الصناعات.

ويقول طلال أبوغزاله تعرّفت على الإنترنت للمرّة الأولى عام ١٩٨٢، في ندوة عقدها إيرا ماغازينر، الذي عمل مستشاراً لرئيس الولايات المتحدة حيث عرض الرّجل صورة لكلب يستخدم كمبيوتر وكتب تحتها إنّ الفكرة وراء هذا الاختراع «الإنترنت» تتمثّل في عدم معرفة الشخص في الطرف المقابل بأنّه يتفاعل مع كلب، وأضاف أنّ هذا هو المكان الذي تتحقّق فيه الديمقراطية العالميّة.

كانت العبارة صادمة لم تبارح خيالي قطّ وعندما توليت منصب الرئيس المشارك في فريق عمل الأمم المتّحدة المعني بتكنولوجيا المعلومات والاتّصالات، دعوت إلى إنشاء منتدى حوكمة الإنترنت لتطويره ونظام متّفق عليه لإدارته.

ودعوتي كانت لكون أكثر من ثلث سكان العالم مشتركين في الإنترنت ويستخدمونه لأغراض مختلفة، كما تجاوز عدد المشتركين في صحيفة فايننشال تايمز على الإنترنت عدد المشتركين للنسخة الورقية.

وأضرب مثالاً على مدى تأثير الشبكة الرقميّة في الحياة العامّة بعرض هذه الإحصائيّة بالغة الدلالة، وهي تكشف عن معدّل التّفاعل غير المحدود على الشبكة الذي يحدث في أجزاء من الثانية فمثلاً: إذا تأخّرت في إحدى المرّات لمدّة دقيقة واحدة فقط، وتساءلت عمّا حدث في تلك الفترة –سيكون قد حدث في دقيقة الإنترنت، عرض أكثر من ٤٧٠٠٠ تطبيق، إرسال نحو مليوني استعلام بحث إلى جوجل، و٣٠ ساعة تحميل فيديو، وإرسال ثلاثة ملايين رسالة بريد الكتروني.

ومن هنا بدأ العالم بأسره ينظر بكلّ الاهتمام إلى دنيا المعرفة وتأثير التطوّر التكنولوجي والشبكة الرقميّة في حياة الشعوب وكنت قد سألت الملياردير الشهير بيل جيتس مؤسّس شركة مايكروسوفت في اجتماع بحضور عدد من الشخصيّات المرموقة عربيّاً، عقد في العاصمة المصرية القاهرة بمجمع القرية الذكيّة، ما هو عنوان هذا القرن؟ يومها لم يفكر بيل جيتس طويلاً قبل الإجابة عن السؤال وقال: الذكاء الصناعيّ.

والقرية الذكيّة هي مشروع حضاريّ في مصر يقع في بداية الطريق الذي يربط القاهرة بمحافظة الإسكندرية، ومساحتها ٦٦٣ فدّاناً ويتكوّن المشروع من ١٥٪ مبانٍ و٨٥٪ الباقية مساحات خضراء ومساحات جماليّة.

ويعدّ أوّل تجمّع في مصر لشركات الاتّصالات وتكنولوجيا المعلومات والمؤسّسات الحكوميّة المرتبطة بتلك الصناعة، ومن حسن الحظّ أنّ لمجموعة طلال أبوغزاله مركزاً رئيساً موجود داخل القرية الذكيّة وهى الشركة الوحيدة في مجالها التي يوجد مقرّها الرئيسي في القرية الذكيّة.

إجابة بيل جيتس أعتبرها تختصر في كلمتين طبيعة العصر الذي نعيشه، وفيه يؤدّي الذّكاء الصناعيّ دوراً رئيساً في شتّى مجالات الحياة، خاصّة عندما نكتشف أن ٩٩٪ من مواطني العديد من الدول الذين أعمارهم أقل من ١٢ عاماً الآن رقميّون وأنّ أحد أهم قرارات القمّة العربيّة يتضمّن اعتبار العقد ٢٠١٥ – ٢٠٢٤ عقد محو الأميّة بمضامينها الثلاثة «الكتابة والقراءة، وتقنيات المعلومات، والثقافة».

ويعود أبوغزاله بالذاكرة إلى الوراء ويقول: منذ عقود مضت يشغل عقلي مناخ التعليم القائم في البلدان العربيّة، وبعد أن استمعت إلى إجابة بيل جيتس طرحت

سؤالاً حول التعليم الجامعيّ وهو: هل الأنسب لعالمنا العربي أن يتمّ تطبيق التعلّم أم التعليم؟ ومتى ستتحوّل الدول العربيّة في نظامها إلى التعلّم بدلاً من التعليم؟ وما هو الهدف من الالتحاق بالجامعات؟ في ظلّ الركود الذي يجعل نصف الخرّيجين الجامعيين يعملون في وظائف لا تتطلّب شهادة جامعية؟

قضيّة لها خصوصيتها، وتحمل وجهات نظر كثيرة، فهناك عباقرة قالوا لا للكلّيات الجامعيّة وللجامعة «انسحبوا منها» لأنّها أخفقت في تقييمهم ورفضوا من داخلهم خوض التجربة وشاء القدر أن يشار إليهم بالبنان في كلّ بقاع العالم وباتوا من العباقرة بكلّ القياسات العلميّة والعمليّة، واستشهد بعبارة جيمي ويلز مؤسس ويكيبيديا: عندما قال: لم يتغيّر التعليم الرسمي العام من حيث الكمّ والنوع بينما ارتقى التعليم غير الرسمي بقوّة خلال السنوات الثلاثين الماضية حيث كان الناس يتردّدون على المكتبات والآن يذهبون إلى ويكيبيديا.

ويستدعى طلال أبوغزاله أيضاً مقولة الفيلسوف الألماني ريتشارد بريخت وهي في رأيه تلخّص حال التعليم عندما قال: لا تحاولوا إصلاح النظام التعليميّ بل تخلّصوا منه وابتدعوا نظاماً جديداً.

ويستشهد بقصص عدد من الأسماء الذين تضمهم قائمة مجلة فوربس لأغنياء التكنولوجيا في العالم عام ٢٠١٤ مثلاً وهم أغنى عشر شخصيات في الصناعة ويذكر بعض هؤلاء أمثال بيل جيتس مؤسس شركة مايكروسوفت الذي تقدّر ثروته بنحو «ستّة وسبعين مليار دولار» والملياردير لاري أليسون صاحب شركة أوراكل بثروة ٤٨ مليار دولار، شركة أوراكل هي واحدة من أضخم وأهم شركات تقنيّة المعلومات بشكل عام وقواعد البيانات بشكل خاص، ولاري بيج مؤسس موقع جوجل بثروة ٣٢,٣ مليار دولار وجيف بيزوس مؤسس أمازون دوت كوم ٣٢ ملياراً ومارك زوكربيرج مؤسس فيسبوك ٢٨,٥ مليار دولار، وغيرهم من النماذج التي صنعت التاريخ من خلال تقنيّة المعلومات والأفكار الخلّاقة غير المسبوقة والتي جعلت من العالم قرية صغيرة.

ويتوقّع أبوغزاله في عام ٢٠٥٠ بلوغ العالم مرحلة التوحّد بين الإنسان والآلة والأدوات وسيكون التعلّم من خلال الذكاء المصطنع، وسيتحوّل دور الأستاذ من التدريس إلى التوجيه التقنيّ، كما سينتهي عصر التعليم ويبدأ عصر التعلّم.

ويقول: التعليم مفتاح النجاح، ولتحقيق التنمية، فإنّ الإبداع محرّكها وأداتها لتعزيز التنافسيّة، وتجربتي الشخصيّة منذ طفولتي وحتى تخرّجي بامتياز في الجامعة الأمريكية في بيروت برغم المعاناة التي مررت بها بسبب التهجير القسري للفلسطينيين تؤكد: أنّ المعاناة نعمة تعطينا القدرة على المضي بحياتنا وعلى الإبداع والنجاح، وبديلاً عن الشعور بخيبة الأمل والضعف، وقررت في كلّ مراحل حياتي أن أواجه معاناتي، وأن أتغلب عليها وأن أحوّلها إلى نعمة.

فالعمل بجدّ وعدم الاستسلام لليأس والمعاناة، هو طوق النجاة من كلّ ظرف صعب من خلال التّعليم والتعلّم، هو حقّ أساسيّ من حقوق الإنسان، وهو الشعار الشهير والمهمّ الذي أطلقه عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين حينما قال: «العلم حقّ للجميع كالماء والهواء» وهي عبارة شديدة التركيز وتلخّص القيمة والمعنى للتعليم، كأداة قويّة قادرة على تحويل الأمم بشكل كلّي ودفعها إلى الازدهار الاقتصاديّ. حيث يمكننا رؤية العديد من الأمثلة من حولنا مثل اقتصاديّات العالم المزدهرة القائمة على المعرفة وهي خير شاهد على ذلك.

نادى حسين بمجانية التعليم منذ رفع شعاره الشهير وإن كان البعض يحاول نسبته إلى «نجيب باشا الهلالي» آخر رئيس وزراء في عهد النظام الملكي الذي كان يحكم مصر.

هي عبارة طه حسين، الذي وصف دعوته للمجانيّة بأنّها لم تكن مجرّد دعوة أطلقها مفكّر لنفع بني وطنه لانتشالهم من الجهالة التي يعيشون فيها وإنّما هي رسالة.

وبعد مرور أكثر من ستين عاماً على دعوته أصدرت الأمم المتحدة في عام ٢٠١١، إعلاناً تعتبر فيه أنّ الإنترنت حقّ من حقوق الإنسان الأساسيّة، في هذا العام كنت رئيساً للتحالف العالميّ لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وعملت بأقصى جهدي لتحقيق هذا الإعلان وشاركت في صياغته.

في العصر الرقميّ الذي نعيش فيه، هناك ضرورة لتحقيق التعلّم في الوطن العربي ومحو الأمية سواء على مستوى القراءة والكتابة أو على مستوى التعلّم الرقمي، التعليم هو المحرّك الرئيسيّ لتطوّر العالم العربي، وقد دفعني إيماني العميق بأهميّة التعليم إلى تأسيس وإطلاق جامعة طلال أبوغزاله لتلبية هذه الحاجة وتحقيق ديمقراطيّة التعليم، وتمكين الشباب الذين حرموا من الاستفادة

من ثورة تقنيّة المعلومات، ومهمّة الجامعة هي جعل البرامج التعليميّة المعتمدة في جامعات العالم المتقدّم في متناول الجميع وفي كلّ مكان أي أنّ الجامعة تمثّل تحالفاً عالميّاً للتعليم والشراكة مع مؤسّسات التعليم في جميع أنحاء العالم، ومن خلالها نسعى لتحقيق مستقبل التعليم الرقميّ والحصول عليه من الجامعات العالمية، ونتيح التعليم العالمي خاصّة لمن هم غير قادرين على الدراسة التقليديّة في هذه الجامعات بسبب تكاليف السفر والإقامة والحصول على التأشيرات.

وتتمثّل رؤية وأهداف الجامعة في أنّ التعليم حقّ من حقوق الإنسان ولهذا فقد جاءت بمثابة ثورة وتحوّل جذريّ في مفاهيم التعليم وقد خصّصت مجموعة طلال أبوغزاله الموارد اللازمة لتنفيذ برامج التّعليم المتقدّم للجميع.

النجاحات في مسيرة أبوغزاله جاءت بالجهد الدؤوب ولم تأت بالمصادفة، فهو نادراً ما يغيّر من عاداته في نظام العمل ويحرص منذ ما يقارب الستين عاماً على أن يكون في مكتبه صباحاً ويستمر في العمل إلى نهاية اليوم.

ولا يحدث أيّ تغيير في نظامه خلال أسفاره للدول التي بها مكاتب المجموعة حيث يذهب في نفس الموعد إلى مكتبه ويستمرّ على مدى أيّام الزيارة بنفس المعدّل.

التفاصيل الصغيرة حاضرة في كلّ قرار، الأولوية المطلقة في ساعات اليوم والليل للعمل بروح الفريق الجماعي، وقد يكون هو صاحب أعلى معدّل لساعات العمل بين جميع العاملين في مجموعته، يعمل كلّ يوم، ويبدأ يومه في السادسة صباحاً، ويستمرّ حتى ينتهي من مهام اليوم التي لا تنتظر الغد وكلّ مهام اليوم في تقديره يفضّل ألّا يتمّ إرجاؤها إلى الغد، فلسفة الناجحين في الحياة الذين يقدرون جسامة المسؤوليّات وقيمة الوقت كما يقول ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا الأسبق «المسؤولية ثمن العظمة».

ويعتقد أبوغزاله إلى حدّ بعيد في صواب مقولة تشرشل أيضاً وهي «أنّ أكبر درس في الحياة هو أن ندرك أنّه حتّى الأغبياء يصيبون الحقيقة بعض الأحيان».

ويرى أنّ أهمّ أداة بين أدوات الحكم هي المعلومات، وكما يقول الأمريكيون «من يملك المعلومات يملك القوة»، ويولي أهميّة قصوى لفن الإدارة ويستلهم دائماً

إجابة ديوايت أيزنهاور رئيس الولايات المتحدة الأمريكية عندما قيل له «لقد قدت الحرب بنجاح»، فرد قائلاً «بل إنّني قد أدرت الحرب بنجاح».

يتوقّف طلال أبوغزاله أمام بعض المواد المهمّة في الدستور الأمريكي وهناك نصوص عديدة جاءت به لكنّه بحكم تخصّصه واهتماماته يولي أهميّة قصوى للمادة التي تقول «إنّ التجارة الأمريكية الخارجيّة هي من اختصاص الكونجرس وليس من اختصاص السلطة التنفيذيّة ولا يستطيع الجهاز التنفيذي أو رئيس الجمهوريّة أو الوزراء المختصّون البت في أي اتفاقيّة تجارية دون موافقة الكونجرس الأمريكي».

هنا وضع الدستور الأمريكي التجارة الخارجيّة ضمن صلاحيات الكونجرس كونها تشكل عصب الاقتصاد الأمريكي ممّا يعنى أنّ من وضع الدستور كان بعيد النظر في استشراف المستقبل.

ويقول عندما تدرك دولة عظمى مثل الولايات المتحدة الأمريكيّة أهميّة التجارة الخارجيّة ويضمن لها الدستور خصوصيّة وتميزاً عن بقيّة الاتفاقيّات، هذا معناه أن نفكر بنفس الطريقة وتضعها الدول العربية في المكانة المهمّة بما تمثّله من تأثير كبير على طبيعة التوازن الاقتصادي للدولة.

مفهوم التجارة امتدّ ليشمل مصطلحات جديدة مثل التجارة في الخدمات، بمعنى أنّ الخدمات قد أصبحت تجارة بما فيها مهنة المحاسبة، بل تحقق تجارة الخدمات إيرادات تفوق التجارة في السلع بكثير، مع الوضع في الاعتبار أنّ الأصول المستخدمة فيها لا تقارن بتجارة السلع أو الصناعات.

كان المحاسبون يعتقدون أنّ المحاسبة تختلف عن التجارة ويريدون إعطاءها صفة خاصّة تبتعد بها عن التجارة، ولكن الاتفاقيّة الدوليّة لمنظمة التجارة العالميّة أوضحت أنّ كلّ تبادل هو تجارة وإن كان هذا التبادل هو خدمات أو اختراعات أو مؤلّفات، بما فيها المحاسبة والسياحة والمصارف وهذه كلّها تجارة، وكذلك الأمر بالنسبة لحقوق الملكيّة الفكريّة، وتأليف الكتب هو تجارة.

لكن يتوقف هنا تفكيره النابه أمام مفارقة لها دلالات عميقة في اتفاقية الجات، أنها شملت كلّ ما في الدنيا من بضائع، وليس هناك بضاعة على الأرض

بما فيها النسيج والقمح و..الخ. وحتى أصل المنشأ ومكانه، إلّا النفط، وهنا تتدخّل المصالح التي تحرّك الدول العظمى ففي الوقت الذي يتمّ فيه إدراج كلّ المهن وليس السلع ضمن مفهوم التجارة يتمّ استثناء البترول وهو بدون شك أهم سلعة استراتيجيّة على الإطلاق، وكثير من الحروب المدمّرة دارت رحاها بسببه وبعض الدول تعرّضت للغزو بحثاً عنه أو للسيطرة عليه.

هذا مفهوم الولايات المتحدة الأمريكية عن النفط، وهي قادرة على بسط هذا المفهوم حتى لو كانت الآراء الأخرى داخل المنظمة تتمايز معها، وتتحفّظ عليه لكن ربما ساعد الولايات المتحدة في ذلك أنّ منظمة التجارة العالميّة هي المنظمة الوحيدة التي لا توجد لها لائحة تحدّد شروط الانضمام والعضويّة وكلّ من تنطبق عليه شروط الانضمام تقبل عضويته، لكنها تركت الباب مفتوحاً أمام التفاوض بين الدول، مما يجعل مهمّة التفاوض شاقة فالدولة التي ترغب في الانضمام قد تدخل في مفاوضات مع عدد كبير من الدول الأعضاء.

وكما هو معروف فإن الدول المؤسسة للمنظمة والتي وقعت على اتفاقيّة مراكش بالمغرب حصلت على مميزات دول التأسيس.

ومع هذا يرى أبوغزاله في قيام منظمة التجارة العالميّة أهمّ حدث بعد إنشاء منظّمة الأمم المتحدة، بكلّ ما تمثّله الأمم المتحدة من أهميّة للعالم تستمدها من خلال المنظّمات التابعة لها والتي تساند الدول والشعوب.

نعمة الركود

في عام ١٩٨٤ ألقى أبوغزاله محاضرة في نادي رجال الأعمال في العاصمة القطرية الدوحة، وكانت بعنوان نعمة الركود الاقتصادي.

جاء عنوان المحاضرة بمثابة الصدمة للحضور، وتساءل الجميع بدون استثناء هل في الركود نعمة؟ يومها أجاب: أنه ليس من المنطق في شيء أن أدّعي أنّ كلّ ما في الركود هو نعمة إلّا أنّني أقول أيضاً إنه حتى في البلاء نعمة، وتلك هي حكمة أوجدها الخالق تعالت قدرته.

في المحاضرة كشف عن أن للركود أوجهاً إيجابيّة إذ أنّه يجعل معدّل التضخّم في حدود معقولة، ويقترب من بداية الانتعاش، وخلال فترة الركود يرتفع مستوى الإنتاجيّة ويتعمّق الوعي لدى الإدارة ويتعزّز الاهتمام بعناصر التكلفة، كما تصبح الإدارة أكثر تجاوباً مع مختلف أساليب خفض النفقات الثابتة، وزيادة الإنتاجية وهناك فوائد أخرى كانخفاض معدّلات الفائدة حيث يصبح بإمكان الفرد تملّك منزل وسيارة وسلع معمّرة أخرى ويلاحظ من خلال الركود أنّ العديد من المؤسسات تزيد من أرباحها والشركات تستفيد من الفرص المتاحة في فترات الركود.

هذا لا يعني أنّ الاقتصادات تنمو فقط في ظلّ حالة الركود، ولكن ما يودّ قوله هو أنّ المحن التي تمرّ بها الدول أو الشركات أو الأفراد يمكن تحويلها إلى منح وهذا ليس بالأمر الهيّن والسهل وإنّما يحتاج إلى تخطيط ودراسة وثقة بالنفس وعدم الشعور بالإحباط أو الارتباك.

فعندما تتعرّض إلى أزمة وهي بطبيعة الحال تكون مفاجئة حتى لو كان هناك تقديرات موقف تتوقع حدوثها، لابدّ من ردّ فعل سريع ففي علوم الإدارة هناك توقّعات لحدوث الأزمات سواء داخل الشركات أو تلك التي تواجه الأسرة العائلية، أو التي تتعرّض لها الدولة، ومهمّة إدارة الأزمات في كلّ المواقع سرعة ردّ الفعل واتخاذ القرارات الصائبة التي قد تنجح في تغيير الظرف من معاناة إلى إيجابيّة وهذا ليس كلاماً خيالياً أو فرضيّات بل هو واقع يحدث ويتكرّر في الحياة.

ولهذا تعلّمت من الحياة «أنّ هناك شيئاً اسمه النقمة الإيجابية والنقمة السلبيّة، فالسلبية هي أن تتألم وتشعر بالحزن، والنقمة الإيجابية هي أن تحوِّل غضبك إلى عمل إيجابي وإلى عمل منتج».

والحديث عن استغلال أسوأ الظروف لتحسين الجودة وبالتالي رفع المعنويات داخل المؤسسة ذلك يتم من خلال الاهتمام بالجودة والتدريب وإعداد المؤسسة للتميّز حال انتهاء الأزمات، حيث عادة ما تكون فرص النمو في أوجها بعد وقت قليل من انتهاء الأزمات. مثال ذلك ما فعلته سلسلة فنادق ريتز كارلتون الأمريكية عام ١٩٩٢ عندما تأثّرت بشكل كبير في أثناء فترة أزمة الفنادق في الولايات المتحدة الأمريكية. لقد قامت معظم الفنادق بإلغاء المناصب المرتبطة بالتدريب والتحسين وإنهاء خدمات العديد من موظفيها في حين قرر الرئيس التنفيذي لسلسلة فنادق ريتز كارلتون في ذلك الوقت هورست شولز (Horst Schulze) تعيين مدير للجودة والتدريب في كلّ فندق تابع للسلسلة فوراً الذي كان نقطة تحوّل للفندق في التميّز في الخدمات أمام كلّ المنافسين في كلّ أنحاء العالم.

ويقول دوماً: أتوقّف بنوع من الانبهار أمام أغلى وأثمن أسماء العلامات التجارية في العالم والتي تتصدّرها بدون منافس العلامات المعرفيّة مثل جوجل وعلي بابا وياهو، وفي مقدّمتها شركة أبل التي هي أعلى قيمة لاسم تجاري في العالم وتقدر قيمة العلامة للاسم التجاري فقط وليس لشركة أبل بحوالي ١٢٠ مليار دولار وقد حلّت هذه الشركات التي تعمل في تجارة الخدمات بدلاً من الشركات الصناعيّة والتجاريّة والماليّة التي كانت تمتلك أغلى وأثمن العلامات التجارية في العالم.

أكبر الشركات التجارية في العالم هي جوجل والعالم كلّه يقرّ بأنّ أغلى وأثمن المؤسّسات أو الشركات لم يعد بنكاً ولا شركة نفط ولا شركة صناعيّة، وهذا يدلّ على أنّ المستقبل لمن يصنع المعرفة وأن الثروة الحقيقية هي من خلال صنع المعرفة والاختراعات المعرفيّة، وخير مثال على ذلك وهذا النموذج وأستشهد به كثيراً لما يمثله من حالة كاشفة، دولة مثل فنلندا عدد سكانها حوالي سبعة ملايين نسمة وهي ليس فيها أيّ موارد طبيعية أو نفطية أو أي نوع مهمّ في هذا العصر ومع ذلك إذا قارنا بينها وبين أيّة دولة عربيّة من حيث عدد السكان نفسه أو قريب من هذا العدد نجد المفارقة الكبرى بأنّ دولة عربية بظروف

وعدد سكان فنلندا نفسها ناتجها القومي أو المحلي فيها لا يزيد على ثلاثين مليار دولار سنويّاً في حين أنّ الناتج المحلّي بفنلندا التي هي في مواصفات مشابهة للسكان والثروة الطبيعية نجد أنّ الدخل المحلي فيها هو ١٧٠ مليار دولار لماذا؟ لأن فنلندا فيها مجتمع يصنع المعرفة ويخترع ويبيع المعرفة إلى منطقتنا.

ويرسم أبوغزاله صورة مختلفة لنظرته إلى الأمور ويقول إن متعة المعاناة تظهر في الوصول الى الهدف من خلال العمل، ويستدعي من الذاكرة المشاهد المحفورة التي شكّلت وعيه عندما يقول: إن الساعات الطويلة التي كنت أمشيها لزيارة أهلي خلال دراستي الجامعية، وقبلها بين المدرسة والمنزل أفادتني صحيّاً الآن، حيث لا أشتكي من أيّ مرض، إلّا من قلة ساعات العمل، لا يجوز للإنسان أن يستريح، ويمكن أن يتم ذلك بتغيير نوع العمل، فالعقل لا يحتاج إلى راحة، أمّا راحة العينين فهي بتغيير المنظر.

الفصل الثاني

عائلتي... وطن

ابن يافا

يتذكّر يوم خروجه من يافا عام ١٩٤٨، كما لو كان حدث بالأمس القريب على الرغم من كلّ الذكريات المؤلمة والحياة الصعبة التي مرّ بها في السنوات التي تلت مأساة التهجير.

كان طفلاً صغيراً لكنّه كما لو كان صعد بعمره إلى مرحلة تستوعب هول المأساة وتتعامل معها في هذه السن المبكّرة من العمر، كما أخذ على عاتقه مسؤوليّة احتضان والديه والبرّ الكبير بهما، ويرجع ما هو فيه الآن من بركة بعد فضل الله سبحانه وتعالى إلى دعوات الوالدين ورضاهما عنه.

منذ خروج عائلته قسراً من فلسطين لم يدخل الأراضي الفلسطينية المحتلّة ويقول بملء الفم: أتوق إليها وأتمنّى أن أمشي في شوارعها، أتلمّس حيطان المنازل، أروي أشجار الزيتون، أصلّي في المسجد الأقصى، وأضع شمعة في كنيسة القيامة في القدس وأخرى في كنيسة المهد في بيت لحم.

ويروي قصّة جمانة ابنته المغامرة التي قرّرت أن تكسر الحاجز النفسي وتخوض الرحلة مهما كانت الصعوبات وردود الفعل، وذهبت إلى يافا في فلسطين المحتلّة.

زارت بيت العائلة في يافا، وهي تعرف أنّ من أهمّ أمنياتي الكبيرة أن أدخل فلسطين، بشرط ألّا يكون للمحتل سلطة ولا أمر.

من الصعوبة بمكان قد تصل إلى حدّ الاستحالة أن أطلب إذناً من سلطة الاحتلال كي توافق لي على زيارة بلدي ووطني، إنّه أمر كبير لن أمنحه للمجرم البغيض. هذا لا يغيّر من احترامي وإجلالي لأخوتي الفلسطينيين تحت الاحتلال، ولكن

بما أنيّ خارج الاحتلال لا أقبل به وأعتبر مجرد ذهابي إلى هناك هو إقراراً منّي بوجوده.

هذا الموضوع يلازمني منذ عهد الزعيم ياسر عرفات يرحمه الله فعندما عاد إلى فلسطين في يوم ١ يوليو/ تموز عام ١٩٩٤، يومها دخل إلى غزّة ضمن اتفاق غزّة أريحا أولاً، ليبدأ من هناك ببناء السلطة الوطنية الفلسطينية ومؤسّساتها، نواة الدولة الفلسطينية حلم ياسر عرفات وحلم كلّ فلسطينيّ، لا اعتراض على ذلك، وبدأت في ذلك الوقت الوفود تزوره للتهنئة والمؤازرة، وجاء اسمي في الحديث، وأطلعني البعض على أنّ من بين الزوار هناك من قال له في محاولة للوقيعة بيني وبينه أنّ طلال أبوغزاله لم يأت إلى فلسطين، فردّ الزعيم الكبير ياسر عرفات عليهم أنّ طلال لن يأتي إلّا بعد أن يرفرف العلم الفلسطينيّ على كامل التراب الفلسطينيّ وعندما يصبح الذي يصدر تأشيرة الدخول فلسطينيّاً وأكمل أنّ دوره وخدمة الوطن من خارج إطار العمل السياسيّ ومن خارج المنظّمة يفيدنا أكثر من الداخل.

كان يرحمه الله يعرف مدى انتمائي وحبّي لفلسطين وهو بطبيعة الحال يعرف، فمن كان غيره يعرف؟ إنّه أبوعمار الرمز والقدوة.

أمّي يرحمها الله كانت تحتفظ بمفتاح البيت في يافا لم تفرّط فيه أبداً، احتفظت به في صدرها بجوار قلبها، وهي على فراش المرض الأخير قبل وفاتها أعطته لأختي الكبرى، وبعدها شقيقتي الصغرى.

ابنتي جمانة زارت البيت في يافا، سافرت إلى هناك وصلت إلى بيتنا بصعوبة، وهو مازال موجوداً عليه لافتة محفورة منزل «توفيق أبوغزاله» الذي هو والدي.

عندما اقتربت من البيت وجدت الباب مفتوحاً... وجدت جماعة تسكنه سألوها ماذا تريدين؟ قالت: أنا بنت طلال أبوغزاله وأبي ولد في هذا البيت وأنا أردت أن أزور المكان الذي ولد فيه أبي، هؤلاء الجبناء ارتعشوا أمام فتاة صغيرة السنّ والحجم، وأصيبوا بالذّعر وقالوا لها لا تلومينا نحن غير مذنبين، هم أتوا بنا إلى هنا وإذا قالوا لنا أخرجوا من هنا سوف نخرج، في هذا المشهد تجسّد شعور المعتدي على حق غيره، لأنّهم لو كانوا أصحاب حق ما ارتعشوا أو خافوا وأصبحوا مثل الفئران المذعورة أمام صاحب البيت.

جمانة التي لا أخفي حباً كبيراً لها وأسمّيها الدرّة النادرة، وقد حصلت على ماجستير من جامعة هارفارد في إدارة الأعمال، ذهبت إلى يافا نيابة عنّي وكتبت في مذكّراتها وقالت: أنا ذهبت بشخصي ولكن بروح والدي لم تتحدّث عن معاملة الاحتلال وسوء التصرّف والإذلال وتحمّلت.

ذهبت إلى يافا وبحثت عن منزلنا وهناك التقت رجلاً كبيراً في السنّ أرشدها إلى مكان البيت ومن هناك أرسلت لي صور المنزل ومازال اسم والديّ عليه، وهناك شارع أبوغزاله مازال يحتفظ باسمه يشهد للتاريخ عن الحق.

المهمّ دخلت المنزل، وأنا أتذكر بعض التفاصيل عنه حتّى الآن من بينها كان له ممرّ طويل وعلى الجانبين سبع غرف للنوم إضافة إلى صالات جلوس وطعام واستقبال، حيث كان والدي يستقبل باستمرار وفوداً وضيوفاً.

ويصف المحتلّ بأنّه جبان وطمّاع وكذّاب، وقال: من العجب العجاب أنّنا نحن نخطئ كثيراً عندما نتحدّث عنه بنوع من العظمة دون أن ندري، وهو لا يمتلك شيئاً واحداً من العظمة.

كانوا يرتعدون خوفاً من بنت صغيرة تقول لهم أخرجوا من بيتنا.

كتبت ابنتي انطباعاتها عن الرحلة والزيارة بشكل إنسانيّ مفعم بالحنين والشوق لتراب الوطن الغالي وذكريات الآباء والأجداد.

هذه المغامرة التي خاضتها ابنتي بمفردها بشجاعة كبيرة وانتماء تعطي انطباعات صادقة أنّ ابنتي تشعر بنفس شعوري... والسؤال أين يوجد شعب في العالم يقدّم كلّ التضحيات من أجل الأرض والوطن منذ عام ١٩٤٨؟

ويقول فلسطين بالنسبة لي هي قضيّة حياتي ومماتي لا تعادلها في القلب مكانة على الرغم من أنّني دائم الأسفار والتنقّل، ولكن ليس للسياحة، وأنا مشارك نشيط في جميع الهيئات والمنظّمات الدوليّة المتخصّصة كمنظمة التجارة العالميّة، والمنظمة العالميّة للملكيّة الفكريّة، وغرفة التجارة العالميّة وغيرها الكثير الكثير، كما أنّني دائم التنقّل لتفقّد مكاتب المجموعة والبالغ عددها خمسة وثمانين مكتباً في البلاد العربية والعالم.

هناك دول لها مكانة عزيزة في نفسي وفي قلبي، وأعتبر أنّ كلّ بلد حقّقت فيه إنجازاً على المستوى الشخصي أو المستوى العملي، له نفس المكانة.

السلام لا يحقق الازدهار

خبرتي في مجال المحاسبة وعالم الاقتصاد جعلتني أقول عندما تمّ توقيع اتفاقيّة السلام مع سلطة الاحتلال: إنّ هذا السلام لن يتحقق معه الازدهار الاقتصادي.

صانع القرار في كلّ دولة عربيّة حريّته الكاملة أن يدخل في اتفاقيّة سلام، هو يجلس في سدّة الحكم ويمتلك كلّ التصوّرات التي قد تغيب عنّي وعن غيري ويعرف المصلحة العليا.

أمّا عن قراءتي من الناحية الاقتصادية أقول: إنّ اتفاقيّة السلام جاءت لتضع نهاية لحرب بين دولتين فقط لا غير، لا أحد على وجه الأرض يستطيع أن يغيّر الحقوق التاريخيّة للشعوب والدول.

لا فائدة من مفاوضات سلام مع سلطة احتلال لا تقبل بالمنطق، أنا طلال أبوغزاله مستعدّ أن أدعم مفاوضات سلام تقود في نهاية الأمر إلى جلاء الاحتلال.

السلام الذي تعتقد فيه سلطة الاحتلال يعني: أن يظل الاحتلال كما هو. كيف أقيم سلاماً مع جلّاد كلّ يوم يقتلني؟ ويدمّر البيوت العامرة ويقطع أشجار الزيتون حتى أموت كفلسطينيّ من الجوع. كان يجب أن نعود إلى الأساس وهو إنهاء الاحتلال، تكلّمنا عن كلّ شيء مع سلطة الاحتلال إلّا إنهاء الاحتلال.

الحل البسيط هو إعادة كلّ لاجئ فلسطينيّ إلى وطنه.

أنا لو سألتني: لو أخذت حق العودة اليوم مثلاً، هل ستعود إلى يافا وفلسطين؟ والإجابة ليس من حق أحد أن يسألني عن قراري، أعطني حقي التاريخي والعادل وأنا من يقرّر.

مبدأ حق عودة اللاجئين إلى بلادهم حقّ وأنا أريد في هذه النقطة أن يكون هنالك معيار واحد وهو عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى بلادهم وعودة اليهود إلى بلادهم.

والسؤال لماذا جاؤوا إلى فلسطين؟ كلّ يهوديّ يرجع إلى بلده الأصلي بما في ذلك الدول العربية التي كان يوجد بها يهود، وكانت تتمّ معاملتهم على أفضل مستوى، وفي البحرين هناك نائب في البرلمان يهودي، الفرق شاسع بين شعب يناضل من أجل تحرير أرضه وبين شعب مرتزقة، نحن ندافع عن أرضنا. أتعجّب من الماضي المثير للريبة لقادة في دولة الإحتلال إنّ عدداً كبيراً من الشخصيّات التى تتقلد مناصب في سلطة الاحتلال لهم تاريخ لا يشرف وعندما أقول إن عدداً كبيرا لا استثنى الآخرين فمثلاً نموذج واحد هو أفيجدور ليبرمان الذي شغل منصب وزير الخارجية وكان متغطرسا بدأ حياته حارس بارات يتولّى حماية بائعات الهوى، لا أقلّل من قيمة العمل ولا أنظر بطريقة فيها انتقاص من العمل الشريف، لكن حينما يكون وزير خارجية بهذا المستوى فكيف يكون التعامل معه.

هذا نموذج لمن يجلس على مقعد السلطة، شخصيّات بعيدة عن المصداقية والماضي المشرف وتكذب وتتمادى في الكذب وهناك من يسمع لها ويمنحها الدعم والمساندة على حساب حقوق الغير، ويعرف ليبرمان بمعاداته الشديدة لعرب إسرائيل التي بلغت حد دعوته في ٢٠٠٦ إلى قتل كلّ عضو عربي في الكنيست يجتمع مع أعضاء الحكومة الفلسطينية التي كانت تقودها حركة حماس، ودعا إلى طرد ٩٠٪ من فلسطينيي الداخل إلى دولة فلسطينية تقام على الأراضي المحتلة.

ولادته ونشأته

ولد طلال أبوغزاله في يافا إحدى المدن الفلسطينية يوم ٢٢ أبريل / نيسان عام ١٩٣٨، فوالده الحاج توفيق سالم أبوغزاله فلسطينيّ الأصل، ووالدته السيدة أديبة وهي سوريّة الأصل من عائلة جبري الدّمشقيّة.

في طفولته كان متميّزاً عن أخوته برغم صغر سنّه وحداثة عمره ففي عمر الأربع سنوات سجّل له والده قطعة أرض صغيرة باسمه قيمتها ٤٠٠ جنيه ولا يزال يحتفظ حتّى الآن بسندها العقاري.

عمل والده جنديّاً بالجيش العثمانيّ عندما كان شابّاً وبعدها عمل في التجارة فكان تاجراً ووكيلاً لعدد من شركات زيوت السيّارات، كما كان مالكاً لعدد من المشاريع الرائدة في فلسطين، يمتلك بيّارات زراعيّة وشركة حافلات تعمل بين القدس ويافا وتسمّى «يافا».

كان والده أميّاً لا يقرأ ولا يكتب إلّا أنّه يتمتع بشخصية الرجل الشرقي ذي الشخصيّة القويّة تهابه أسرته احتراماً وهيبة وتحسب له حساباً.

يصفه قائلاً: كان والدي ذا شخصية عظيمة، وقويّة جدّاً، كنّا نهابه احتراماً وتقديراً، فكان إذا حضر وقفنا له جميعاً كالتلاميذ احتراماً وإجلالاً ولا نعود نجلس إلّا إذا أذن لنا بذلك، لا يسمح لنا بإبداء الرأي إلّا إذا سُئلنا، لم يكن يؤنّب أحداً لكن كان يوحي لنا بأسلوبه الخاص فندرك ما يريد، كان يتمتّع بصحّة ولياقة بدنيّة عالية وعجيبة، لقد علّمني السباحة عندما كان عمره ثمانين عاماً، وكان يوصيني بالتجارة ويقول: «التجارة ثلثا الإمارة» توفّي معمّراً بعمر مائة وسبع سنوات.

أتذكّر أنّه كان يوقظنا صباحاً قبل بزوغ الشمس فيقول: «إن الله يوزع الأرزاق قبل بزوغ الشمس» كان رجلاً حكيماً برغم أنّه رجل أمّي. لقد علّمني والدي قيماً كثيرة في حياتي، علّمني الحكمة وعلّمني كيف أتعامل إيجابيّاً مع الأزمات والمشاكل وتحويلها إلى متعة، وأنا أمارسها الآن في عملي، فالكثير يدهش

عندما يراني أبتسم أمام المشاكل والأزمات فهي طريق مثالي لحلّها، واستفزاز للقدرات، وهي فرصة للتفكير الإيجابي والنّجاح والانتصار في حلّها وشحذ الهمم لها.

يذكّرني ذلك بوالدي عندما حدث حريق كبير وهو من أكبر الحرائق التي حدثت في يافا عندما كان جالساً في أحد المقاهي التي اعتاد على الجلوس فيها مع أصدقائه وأقرانه، وجاء من يخبره أن مخازن الزيوت جميعها احترقت، كان همّ والدي السؤال عن الناس، وهل تمّ اتّخاذ إجراءات لحمايتهم من الحريق؟

لم يذكر والدي قطّ الممتلكات والمخازن لم يكترث للضرر المادّي وكان همّه الناس فقط.

يستكمل حديثه عن والده فيقول منذ حوالي خمسة وعشرين عاماً حدث حريق في أحد مكاتبنا في الخبر «إحدى المدن السعودية» وجاء من يخبرني أنّ المكتب بأكمله احترق، كنت حينها على الغداء، لم أتذكّر ما حصل مع والدي آنذاك ولكن تصرّفي كان مماثلاً لتصرّف والدي، كان همّي فقط السؤال عن الموظفين إن كانت هناك إصابات، لم أسأل عن الخسائر وأكملت غدائي.

كان والدي مبادراً وصاحب ريادة، فكان إنشاؤه للكثير من المشاريع الجديدة وأذكر أنّه أنشأ معملاً للثلج كان شيئاً جديداً وغريباً وكان يصحبني لأرى الماء يتجمّد، قوالب الثلج كيف تصبّ وتبرّد... كانت ذكريات جميلة.

كان والدي يوصيني بالارتباط بالأرض ويذكّرني أن لا أنسى أنّي مزارع، كان يؤمن أنّ المزارع هو أكثر الناس وطنيّة وإخلاصاً لارتباطه بأرضه وحبّه لها، وتلك الفكرة لم تفارقني يوماً.

وحتى اليوم أنا تلميذ كلّ يوم أتعلّم وأستفيد.

يتحدّث عن والدته فيقول «كانت سيّدة فاضلة وربّة منزل اهتمّت بشؤون العائلة والأولاد، وتأمين مستلزمات الحياة الأسريّة، كانت تنشر الحب والألفة والحنان بيننا، كنت قريباً منها عاطفيّاً، كانت تدعو لي دائماً بالرضا والحمد لله، كنت أحبّ المكوث في البيت، كنت ولداً مطيعاً ومهتمّاً بدراستي».

كنت بمدرسة الروم الكاثوليك، وهذا أثّر في حياتي، حيث صار الدين عندي خلقاً، وتعلّمت القيم المسيحيّة. من حظّي أنّ والدي وضعني في هذه التجربة، وعندما هاجرنا إلى لبنان بدأت في مدرسة البروتستانت محيط تعليميّ أعطاني ذلك، ولا أعرف مَن مِن زملائي في المؤسسة مسلم ومَن مسيحي. والآن أصبحت عربيّاً وليس هناك شيء يميّز بين الناس سوى أنّك عربيّ صادق.

«سيرة حياة» طلال أبوغزاله حفلت باهتمامات الباحثين والكتّاب فهي في نظر الكثيرين قصّة كفاح ونضال تعبّر عن نفسها، وتجمع بين كلّ العناصر التي يبحث عنها الكاتب أو الباحث لتقديمها إلى جموع القرّاء كتجربة وقدوة تتطلّع إليها الأجيال.

كتب عنه بحبّ كبير الدكتور فاروق مجدلاوي أحد أعمدة التربية والتعليم في الأردن، الذي شغل منصب رئيس اتّحاد الناشرين الأردنيين فقال: كنت أتابع حواراً على قناة الشارقة مع الدكتور طلال أبوغزاله وكانت أسئلة المحاور تنهال على ضيف البرنامج من الناحية الاقتصادية كالصواريخ التقليدية التي يعرفها الناس، وأما الدفاعات والتحليلات والإجابات التي ردّ بها خبيرنا العربي والعالميّ طلال أبوغزاله كانت على مستوى إن دلّ على شيء فإنمّا يدلّ على نبوغ العقل العربيّ في المجال الاقتصادي، وقد لفت انتباهي من ردود أبوغزاله أمران كان مفهومنا لهما خاطئ الأوّل: أنّ النقطة الواحدة في البحر لها أهميّة كبيرة بعكس ما فهمناه بالسابق من المثل العربي المعروف والقائل: ماذا تفعل نقطة ماء في بحر؟

أمّا الأمر الثاني: فهو للمثال الذي أورده السيد طلال أبوغزاله عن البروفيسور العربي السوداني كامل إدريس الذي احتلّ مركزاً عالميّاً في هيئة الأمم المتحدة كرئيس دائرة حقّ الملكيّة الفكريّة في العالم. وقد أراد السيد أبوغزاله أن يوضح للسائل بأنّ العرب قادرون على أن يكون لهم وجود في عالم المستقبل.

كما شجّعت شخصية طلال أبوغزاله ونجاحاته الكاتبة والأديبة السورية الشهيرة غادة السمان، وكتبت عنه مقالاً بديعاً بعنوان «سـنـدبـاد بـلا حـدود» نشرته في جريدة السفير اللبنانية عرضت فيه جوانب مشرقة ومهمّة في شخصيّته عبرّت فيه بموهبتها الطاغية عنه أفضل تعبير فقالت في الجزء الأخير من المقال ضمن ما قالت: «فواحد قال: إنّه المعلّم، وآخر قال: إنّه الأستاذ،

وثالث قال: إنّه الحكيم، ورابع قال: إنّه الصديق: وغيرهم قال: إنّه اللهوف... وغيرهم قال وقال وقال...»، فقلت: حسبكم ما هذا التفرّد، وهو مفرد فرد، فكيف جمعتموه إلى هذا الحدّ... قيل أعرفته، قلت: لا، قيل: إذن لآرائك قليل صواب، ولسخطك الدائم بعض التجني.

قلت: أين السبيل؟ قيل: خطوة، ترجّلي عن كبريائك ولا مبالاتك، وتقفّي العبارة للاعتبار! لم أفهم يومها ما الذي يجنيه هذا السندباد من تجواله المتواصل عبر أرجاء الكوكب ولم أفهم كيف استطاع هذا الملقّب بلا حدود، أن يصير شعلة وهّاجة بحجم خطوط طول المعرفة وعرضها ولم ألمّ بمحوريّته اللافتة في كل محفل ومنبر ومعجم! فقط فهمت أنّه بفضل نشاطه الزائد هذا يعتاش أكثر من ألف موظف وعائلة، فهمت أنّه يحرص كلّ الحرص على أن يدعم كلّ طالب علم ويساعده للتأهيل الدراسيّ والمعرفي. فهمت أنّه برغم كلّ الشهادات التي غنمها من هنا وهناك لا يعترف إلا بشهادة واحدة وهي شهادة الحقّ في كلّ موقف وكلّ حين. فهمت أنّه لا يحمل ولا يفاخر بغير هويّته الفلسطينية فوق كلّ امتياز ويوقع بكبريائه واعتداده يقين الأمل... ويرثي بتفاؤله شهداء الوطن. فوق كلّ بروتوكول.

فهمت أنّ عفويّته فوق كل بروتوكول... وانحناءه الأسمى لكلّ بساطة وبسيط... وشعاره الموجز «أي كائن جدير بالاهتمام».

ما أضيق المسافة بين عمّان وبيروت ومعظم العواصم التي يختزلها أبوغزاله بكلمات المحبّين، فما أعمق العبارات التي سمعتها من قبل، وما أرقاها أن تتجدّد اليوم في نقابة الصحافة اللبنانيّة من رجل يرتقي باللغة والحضور والمقام كالدكتور روحي بعلبكي وهو يختصر لكلّ من حضر حفاوته واحتفاءه بأبي غزاله بقي لي أن أؤكد -بعيداً عن كلّ ما فهمت وما لم افهم- أمراً واحداً لا غير أمر يحرضّني على أن أكتب وأكتب وأكتب.

أمر لا يقدّم لي أيّ أمر أو يؤخّره حسب ما يمكن أن يشاع سرّاً أو علانيّة. أمر يسعني أن أدوّنه بكلّ حبري وحروفي وما أوتيت من بصمة ولو كره المتعقّبون. إنّ طلال أبوغزاله يشكّل لديّ استثناءً خاصّاً لاحترام كبير. ولأنّ الاحترام عندي مطلب ومذهب ومنهج ومرتبة واكتراث فهو حقّاً رجل دون كلّ الأشباه.

ويقول الدكتور أحمد أبو الحسن زرد رئيس المكتب الإعلامي المصريّ في البحرين ولبنان سابقاً عن طلال أبوغزاله وسيرة حياته أنّها قصّة حياة تستدعي الذاكرة مقولة الإمام علي «العلم يحرسك وأنت تحرس المال»، ومقولة الأديب توفيق الحكيم «الآلام العظيمة تصنع الآمال العظيمة»، فنحن بصدد سيرة ذاتية يفرض فيها العلم كلمته، برغم قسوة الحياة، وجبروت المحتلّ.

اختار الدكتور أبوغزاله طريقاً مختلفاً لمقاومة المحتلّ من خلال التسلّح بالعلم باعتباره –أي العلم– وسيلة ناجحة لمقاومة المغتصب والمحتل «كلّ يخدم القضية في الموقع الذي يعمل به».

قدّم صاحب السيرة النموذج والقدوة في مختلف محطّات حياته... وضع نصب عينيه تأسيس شركة وجدت لتبقى، واستبعد تماماً أن تكون عائليّة خالصة، بل جعلها مؤسّسة راسخة لها قواعدها ونظامها الإداريّ العصريّ... ومن ثمّ وضع أساساً متيناً لما يمكن تسميته مؤسسة الشركات العائليّة التي تستمر.

السيرة بتفاصيلها المثيرة أحياناً، وأحداثها المتلاحقة أحياناً أخرى تقدّم نموذجاً للقيم العليا وفي مقدّمتها الانتماء والولاء الحقيقي للأسرة والمجتمع والعرفان لمن وقف إلى جانبه في وقت العسر والشدّة «يتذكّر بكلّ الامتنان الرجل الذي كان كريماً معهم بعد الرحيل من يافا، وفضّل مدرسة المقاصد، والجامعة الأمريكيّة، والكويت وشعبها».

ومن ثمّ، فالسيرة بها رسائل كثيرة للشباب تبعث على التفاؤل وتحيي الأمل برغم قسوة الأيّام وعاديات الزمن. باختصار وكما يقول صاحب السيرة إنّ النجاح الحقيقي هو أن تتمكّن من تحويل النقمة إلى نعمة.

لم يتسلّل الإحباط إلى صاحب السيرة، فبداياته الأولى وما بعدها تخلّلتها عثرات وإخفاقات وإحباطات ونكسات وليس هناك ما يخجل منه بل يعلن بكلّ فخر أنّه ارتدى سترة مصنوعة من بطانيّة الإيواء، ويحتفظ في منزله بجميع الردود التي وصلته من أصحاب العمل، والشركات التي كانت تعتذر عن عدم قبوله في الوظيفة التي تقدّمت إليها، وبرغم انهيار شركته بالكويت بعد الغزو إلّا أنّه تمكّن من النهوض مرّة أخرى في مكان آخر «الأردن».

إنّها حقّاً سيرة ثريّة حافلة بالعلم والمعرفة والمبادئ الرفيعة، والتأمّل والتطلّع إلى المزيد من النّجاح والتفوّق وهي في مجملها تقدّم رسالة ايجابيّة لكلّ الشباب.

صدرت باللغة العربيّة كتابات حملت اجتهادات مثمرة وقيمة منها كتاب «رجل من بلدي ـ سيرة حياة سعادة الدكتور طلال أبوغزاله للكاتبة ليلى الرفاعي» وهو كتاب من الأهميّة بمكان لكلّ من يريد أن يتعرّف على رحلة طلال أبوغزاله.

وهناك تجربة أخرى في الكتابة باللغة الإنجليزية خطّها طلال أبوغزاله بقلمه في كتاب بعنوان «البطّانيّة تصبح جاكيتاً... حياة نشأت من رحم المعاناة».

يقول عن هذه التجربة: تلقيت دعوات متكرّرة تطالب بإصدار تجربتي في كتاب باللغة الإنجليزية وجدت من الضروريّ أن يكون هناك شيء مختلف، وجاء الاهتمام بمراحل الطفولة ورحلة المعاناة في هذا الكتاب فهو بشكل غير مباشر يكشف بوضوح عن أكبر جريمة عرفها التاريخ وهي احتلال فلسطين وكنت وعائلتي وكلّ الشعب الفلسطيني ضحايا لهذا الاحتلال الذي يشكّل استمراره إدانة دوليّة للضمير الإنسانيّ وبقعة سوداء في تاريخ العالم المتحضّر الذي يخفي وجهه أمام حقائق التاريخ وينساق وراء أكاذيب روّجتها الدعاية الصهيونية لا أصل لها في كتب التاريخ ولا وجود لها على خريطة العالم، وإنّما هي مجرّد أوهام تعيش في عقول بني صهيون.

هذا الكتاب يروي بعضاً من قصص حياتي الكثيرة التي يظهر فيها كيف أن المعاناة بالنسبة لي كانت نعمة، وكيف أنّني من خلال هذه المعاناة استطعت أن انتصر عليها.

في حياتي العديد من القصص المتنوّعة أردت أن يطّلع عليها غير الناطقين باللغة العربية، ربمّا تكون إضافة للتاريخ العربيّ الحافل بالنماذج التي أثّرت في الحضارة الإنسانيّة، فنحن كعرب يجب أن نغذّي الذاكرة العالميّة بما نعتقد أنّه إضافة للرصيد الإنسانيّ.
وقال أبوغزاله إن اسم الكتاب استوحيته من ذات الصورة المبيّنة على الغلاف حيث أن تلك الصورة تروي إحدى قصص المعاناة التي عشتها، تم التقاطها خلال فصل الشتاء، عندما كنت لاجئاً وعمري عشر سنوات، وقال «في ذلك الوقت

كان الجو بارداً ولم يكن لدى والدي القدرة على شراء سترة ممّا دعا والدتي لأن تصنع لي سترة من «البطانيّة» التي حصلنا عليها من الأونروا كلاجئين، وكنت ألبسها خلال ذهابي للمدرسة»، وأضاف: «كنت أتفاخر فيها أمام زملائي الذين يلبسون ستراتهم التي اشتراها لهم ذووهم من السوق، لأنّ سترتي كانت من صنع والدتي أوّلاً ولأنّها كانت توفّر لي الدفء الكافي أكثر بكثير من سترات زملائي».

وخلال صفحات الكتاب وفي قصّة «حياة نشأت من رحم المعاناة» يروي فيها الدكتور أبوغزاله قصة تهجيره إلى لبنان، بعد أن عاش العقد الأول من عمره على ثرى فلسطين الطاهر، ويروي خلالها ما تعلّمه من والده من احترام للوقت وأهميّة إنجاز أي شيء قبل شروق الشمس «لأنه مع شروق الشمس تكون قد خسرت نصيبك لأن شخصاً آخر سيكون قد أخذه»، وأنه ثمّة وقت لكلّ شيء وأنّ الوقت هو السلعة الوحيدة التي يمكن أن تصنعنا من العدم.

قصص أخرى ومتعدّدة تروي كيف كان يسعى ليرى كلّ ما فيه معاناة بالنسبة للآخرين هو نعمة بالنسبة إليه، ومن تلك القصص احتفاظه برسائل التوظيف الخاصة به، وطرده من العمل، وانطلاقة مجموعته على أيدي موظّفيها، وصناديق السيارات التي كانت مكاتب المجموعة في البداية، وغيرها الكثير من القصص.

ثقة طلال أبوغزاله في قيام دولة فلسطين لا تعادلها ثقة، عندما يتحدث عن هذا الأمل يشعر كلّ من يستمع إليه بأنّه يرى أشياء بعينيه... لم يفقد في أصعب المراحل الأمل في أنّ الغد القريب لمصلحة عدالة القضية الفلسطينيّة.

في نظره إسرائيل سلطة احتلال وهي تحيا وتعيش فوق أوهام لا تستقرّ أبداً على أرض صلدة متينة، ويعترف بأنّ الطريق في مقاومة الاحتلال لم يكن في كلّ مراحله بالصورة المرضية ممّا ساعد سلطة الاحتلال على التّنفس لفترة أطول، لكنّه في الوقت نفسه يرى أنّها سلطة مصطنعة ومقوّمات الاقتصاد فيها هشّة وتقوم على المنح والمساعدات غير المشروطة وهو أمر لا يستقيم طويلاً.
ولا يذهب بعيداً مع أولئك ممّن يعتقدون أنّ حلم العودة يتباعد وأنّ ما هو قائم على الأرض أصبح قائماً ويرى في هذه المقولات كثيراً من عدم الوعي بحقائق التاريخ وعبره.

فسلطات الاحتلال التي تعاقبت على وجه الأرض كانت إلى زوال... قد تطول المدة الزمنية وقد تقصر لكن حتمية التاريخ تذهب في هذا الاتجاه.

ودوماً يؤكّد أنّه لا يتكلّم في السياسة ولا يحسب نفسه ضمن قائمة المناضلين في الميدان ولكنّه يتحدّث فيما يعتقد أنّه يعرف.

ويقول: من خلال دراستي للاقتصاد هناك أشياء مهمّة يجب التوقّف أمامها، فلا يوجد هناك ما يسمى الاقتصاد الإسرائيلي ويجب التوقف أمام هذا الأمر بنوع من الانتباه.

اقتصاد الدولة يقوم على ثلاثة معايير هي حدود ودستور وشعب، هذه المعايير غير موجودة في ما يسمّى سلطة الاحتلال وبالتالي أنسب توصيف لها هو سلطة الاحتلال الصهيوني فهنالك اقتصاد سلطة محتلة وليس اقتصاد دولة.

ويرى أنّ سلطة الاحتلال في مأزق اقتصاديّ طوال الوقت لأنّ من جاء إلى هذه السلطة هم مجموعة من المرتزقة جاؤوا من دول العالم، وهي ظاهرة غريبة وهي المجموعة الوحيدة في الدنيا التي لها جوازان سفر فكلّ مواطن من الحركة الصهيونيّة يحمل جوازي سفر أحدهما الأصلي لبلده التي جاء منها والثاني لسلطة الاحتلال الإسرائيلي وبالتالي ليس لديه مشكلة في العودة إلى بلده الأصلي عندما تنتهي مبرّرات وجوده.

المهاجر اليهودي الذي وعد بالجنة الموعودة وجاء إلى فلسطين المحتلّة لأسباب اقتصادية يكتشف كلّ يوم زيف الحياة المزعومة.

فلسطين شعب محتلّ يناضل لتحرير وطنه ويدفع الثمن بروحه وماله في مقابل مرتزقة جاؤوا ليستفيدوا من وطن آخر مالاً ورزقاً.

الفرق بين المقاوم الفلسطيني والمحتل.

المقاوم تقاليده ودينه تقول له: ضحّي بمالك وروحك من أجل وطنك، عكس المحتل الذي تقول له تقاليد دينه حافظ على روحك ومالك وممنوع التبرّع.

اليهودي لا يدفع من جيبه، يدفع من جيب الحكومة الأمريكية في الخصم من الضرائب.

إسرائيل عبء على أمريكا وليست في عداد الدولة القوية بالدلائل والبراهين ومن خلال الإحصائيات والأرقام. وهناك نقاط ضعف في سلطة الاحتلال، وبالتأكيد هناك نقاط قوّة لكن المفارقة أنّ مصادر قوة سلطة الاحتلال هي مكمن نهايتها.

سلطة الاحتلال هي الوحيدة في العالم التي تتمتّع بالعضوية في السوقين الأمريكية والأوروبية كما لو كانت ولاية أمريكية ودولة أوروبية بجانب حجم التبرعات اللامحدود الذي تحصل عليه من الدّعم الضريبيّ ورئيس وزراء سلطة الاحتلال يكون أوّل بند في جدول أعماله عند زيارته للولايات المتحدة الأمريكية اتفاقيّات التقنية، بحيث يحصل على كلّ التقنيّات مجاناً وبدون تكلفة ولا تعطى للحلفاء الأوروبيين، وعندما نتحدّث عن صناعة الطائرات في سلطة الاحتلال فهي بتقنيّة أمريكية.

العقل الصهيوني لا يبتكر، ووفق التقرير الأمريكي للمفوّض التجاري الأمريكي الذي يصدر تقريراً حول أحوال العالم في براءات الاختراع يقول إنّ سلطة الاحتلال هي الأولى في القرصنة والتعدّي في العالم ولا تعاقب وعدم معاقبتها له دلالات.

المشروع الصهيوني هو حركة ضد المشروع العربي وكان مشروعها أن تسيطر على الاقتصاد العربي.

التاريخ يقول: إنّ العلاقة بين أيّ دولة عربيّة مع إسرائيل لم تثمر اقتصادياً من قريب أو بعيد، بدليل أنّ اتفاقيّة مثل اتفاقية الكويز وهي اتفاقيّة تجاريّة معروفة كان منطلقها مبادرة أقرّها الكونجرس الأمريكي في عام ١٩٩٦ بهدف دعم مسلسل السلام في منطقة الشرق الأوسط، وتسمح لمصر والأردن بتصدير منتجات إلى الولايات المتحدة معفاة من الجمارك ما دامت تحتوي على مدخلات إنتاج قادمة من إسرائيل، وتم توقيع الاتفاقية في القاهرة في ١٤ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٤ بين مصر وإسرائيل والأردن والولايات المتحدة الأمريكية.

على الرغم من كل هذه المزايا كانت النتائج ضعيفة جدّاً.

ويقول لابد من «إيجاد حوار عربيّ وطني وخلق حراك فكري حتى يقتنع الضمير الجماعي الفلسطيني والعربي بوجوب العودة وإنهاء الاحتلال»، وأن تعمل «مراكز الأبحاث والمراكز الفكرية والمؤسسات والهيئات ذات العلاقة إلى طرح المبادرة للنقاش والعودة إلى الأساسيات».

فأنا «لست سياسيّاً ولا مؤرّخاً، ولا أدّعي أيّة معرفة بالقضايا المتعلّقة بحلول إنهاء الاحتلال في فلسطين، وإنمّا أتحدّث من موقعي كمواطن عربيّ، ولد في يافا في فلسطين وعاش من خلال التجربة العمليّة حياة اللجوء ومعاناته، وآمن بأنّ من أبرز وأهمّ حقوق الإنسان حقّ العودة إلى الوطن».

«من منطلق إيماني بحق عودتي وعودة كلّ فلسطينيّ إلى وطنه فلسطين، أي كامل فلسطين من البحر إلى النهر، كذلك من منطلق أخلاقي وبعيداً عن المعايير المزدوجة التي تمارسها القوى المهيمنة على العالم، فمن الأولى تطبيق نفس المعيار على اللاجئين اليهود الموجودين حاليّاً في فلسطين».

«المستهدف بالحديث هو كلّ يهوديّ موجود على تراب فلسطين، ممّن هاجر من بلاده قسراً وتحت ظروف الحاجة، نتيجة التعذيب والاضطهاد والتمييز العنصري الذي مورس على اليهود في الغرب عامة ودول أوروبا جميعها، إضافة إلى المهجّرين من أمريكا والدول العربيّة الأخرى، بخلاف المفهوم الخاطئ بأنّ عمليّة التعذيب الوحيدة قد تمّت في ألمانيا، لأنّ التعذيب بدأ في دول أخرى قبل ألمانيا وقبل «الزعيم النازي أدولف هتلر».

وقدّم أبوغزاله أمثلة على ذلك، منها «عام ١٤٠٠ حينما منع اليهود من دخول روسيا، وعام ١٤١٤ حينما طرد اليهود من مدينة كولوم في فرنسا، وعام ١٤٢١ حينما طرد اليهود من النمسا، و١٤٩٢ بطردهم من غراندا، وعام ١٤٩٧ بطردهم من البرتغال، و١٥٥٥ حينما قرّر البابا بول الرابع حصر اليهود في روما ضمن حائط مقفل عليهم، لكي يدفعوا ثمن الأخطاء ويتراجعوا عنها، والعام ١٦٤٨ حينما دمّرت أوكرانيا منازل اليهود، وعام ١٧٤٤ حينما طرد اليهود من بوهيميا وموريفيا، عام ١٧٨٩ حينما ألغت الجمعية العموميّة الفرنسية حقوق مساواة اليهود في فرنسا، وعام ١٨٠٧ حينما أجبر نابليون الحاخامات اليهود

على ترك الديانة اليهودية وإعطاء الولاء لفرنسا، وعام ١٨٨١ حينما حمّل القيصر الروسي اليهود مسؤوليّة قتل والده ووعده بقتل ثلث اليهود الموجودين، وعام ١٨٩٣ حينما اعتبرت فرنسا اليهود مسؤولين عن انهيار شركة قناة بنما التي كلفت المستثمرين الفرنسيين مبالغ طائلة».

ربمّا نستذكر أيضاً اليهودي الأمريكي هنري فورد الذي اعتبر أنّ اليهود مشكلة العالم الدوليّة، وصرف الأموال الطائلة في الإعلام ومختلف الوسائل لشنّ حملة ضدّهم، كما أورد أفكاره في كتاب حمل عنوان «اليهودي العالمي-بروتوكولات حكماء صهيون: المشكلة الأولى التي تواجه العالم».

ولا ننسى «ما قاله الرئيس الأمريكي السابق فرانكلين روزفلت إن اليهود مشكلة أمريكا وسيأتي يوم يندم فيه الأمريكيون على وجود اليهود بينهم».

إنّ «وجود اليهود في فلسطين أو هجرتهم إليها لم تكن نزهة أو بموجب حقّ قانونيّ أو تاريخيّ، بل جاءت نتيجة ظروف التعذيب في الغرب، بعكس الحال الذي كان سائداً في فلسطين والمنطقة العربيّة من حسن ضيافة قبل عام ١٩٤٨».

واليهود اليوم يشعرون بنفس الشعور الذي كانوا يشعرون به في الغرب من قلق على مستقبلهم وحياتهم، لأنّ الغرب استعملهم كأداة بعد أن أخرجهم ليتخلّص منهم وكمخلب لمحاربة والسيطرة على المحيط العربي ممّا خلق بطبيعة الحال عداوة طبيعية بسبب أنّ وجودهم المصطنع بطبيعته جعل منهم أعداء.

إنّ «اللاجئين الفلسطينيين في الدول العربية ضيوف فيها غير مرحّب بهم لأنّ الدول المضيفة تكرر صباح مساء التزامها بعودة اللاجئين إلى ديارهم وعدم استعدادها لاستيعابهم، وأنا أؤيّد ذلك، لأنّ كل فلسطيني له الحق القانوني والمبدئي والأخلاقي في العودة ويجب مساعدته على ذلك وليس تعطيله عن ممارسة الحق».

لكن «المشكلة مزدوجة، يهود هجّروا إلى فلسطين وفلسطينيون هجّروا من فلسطين، والحل يكمن في عودة كلّ مهجّر إلى بلده».

«عملية الإجبار تمّت بطرق مختلفة نتيجة الضغوطات والإغراءات والتمييز العنصري ضد اليهود وليس «معاداة السامية» كما يزعمون».

«أكثر الدول دعماً وتعصّباً لمجموعة المهجّرين هي الدول التي كانت أكثر تعذيباً وإساءة لهم، وهم يحاولون التغطية على سوء معاملتهم من خلال دعم الوجود المصطنع، وفي مقدّمتها فرنسا وهولندا وبريطانيا وألمانيا وأمريكا».

«الغرب الآن وصل إلى مراجعة ذاتيّة وتعذيب ضمير يكفي لأن يعيد هؤلاء الناس المهجرين دون أن يستمر في معاداتهم وتعذيبهم»، معتقداً «بعدم تكرار عملية التعذيب والمعاناة بعد التجربة التي دفع الغرب، مثل ألمانيا وسويسرا، ثمنها غالباً مالاً ومواقف أخلاقية ضدّ الضمير والقانون والحق للتكفير عن أخطائها».

وأنا «لست صاحب مشروع ولا أنوي إدارة حركة أو منظمة، إنمّا أطرح فكرة ليتداولها المجتمع الفلسطيني والعربي والدولي، باعتبارها الحلّ الوحيد الذي يستند إلى قوانين الأمم المتحدة وحقوق الإنسان والأديان والأخلاق والمبادئ، وكلّ ماعدا ذلك مجرّد حلول مصطنعة لن تدوم».

«لقد سرنا خلال ٦٨ عاماً ضمن حلول كنّا نظنّ أنّها الأسهل، غير أنّ ما حصل المزيد من التراجع وتعقيد القضيّة، برغم أنّ الطريق المستقيم هو الأقصر، وإن كان يبدو الأبعد، حيث لا حلّ إلّا ما هو الحق، ولن يعيد فلسطين إلّا المقاومة، مادام هناك فلسطيني واحد بقي يناضل».

«ينتشر في العالم أبناء الشعب الفلسطيني، الإحصاءات الفلسطينيّة تقول ١١ مليون فلسطيني في الخارج، والأمر المؤكّد أنّ العدد أكبر بكثير من هذا الرقم، لا يمكن إفناؤهم والقضاء عليهم، وإذا لم يعادوا إلى كلّ فلسطين فسيخلق مشكلة في الدول العربية وفي العالم كله».

وهناك «عدم إمكانية استيعاب الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزّة حتى لو أمكن تطبيق حل الدولتين، فيما يتعارض قبول سلطة الاحتلال بإعادتهم إلى الضفة وغزّة فقط مع حقّ العودة».

و«اليهود ليس لهم نغمة إلا نغمة التعذيب و«الهولوكست» في الغرب، ومن المؤلم أنّ الغرب بدل أن يرفع التعذيب عنهم قرّر أن يرميهم في البحر، فأوروبا هي المشكلة التي نتج عنها التخلّص من الشعب الفلسطيني عبر طرده من بلاده، ونحن نتكلّم عن معاناة نتيجة سوء تصرّف اليهود في الغرب، فهم الذين خلقوا الكره لأنفسهم».

إنّ «المعاداة بدأت كردّ فعل على سوء تصرّفات وعنجهيّة اليهود في الغرب وسعيهم للاستيلاء والسيطرة على كلّ شيء».

وتنسحب تلك النغمة على «المزاعم الصهيونيّة الأخرى مثل «أرض الميعاد» و«الشعب المختار»، فاليهود اشتهروا بصناعة الأكاذيب وارتكاب الجرائم والإرهاب، فيما خلقوا نموذجاً معكوساً لتكوين الدّولة، حينما بدأت سلطة الاحتلال بتهجير عصابة «الهاجاناة» إلى أرض فلسطين ثم جرى استدعاء جميع الحركات اليهودية المسلحة بعدما استدعت مواطني دول العالم اليهود للهجرة إلى فلسطين وتأسيس دولة».

إنّ «هدف الحراك الفكري فضح حقّ العودة الذي استخدم ذات يوم للضغط على اليهود وإجبارهم على الرحيل عن أوطانهم الأصلية، إضافة إلى التوعية بأنّ الوجود اليهودي في فلسطين ما هو إلا ظاهرة لجوء سياسيّ سينتهي بعودة اللاجئين إلى أوطانهم الأصليّة».

ويقول إنّ «الجنسيّة التي منحها اليهودي لنفسه لا قيمة لها مهما حمل من مستندات وجواز سفر، لأنّها لم تصدر عن جهة صاحبة صلاحية، ولو كان المجتمع الدولي يحترم نفسه لما اعترف بها، لتخالفها مع الأنظمة والقوانين الأمميّة»، وهناك «ثمّة عناصر تؤثّر على مسار القضيّة، منها البعد الديمغرافي المتعلّق بزيادة عدد المواطنين الفلسطينيين العرب على اليهود في المستقبل، إضافة إلى البعد الأيديولوجي حيث لا يمكن القضاء على المقاومة، فضلاً عن التقدّم التقنيّ الحديث وتغيّر معادلات الانتصار والهزيمة، بعدما أصبحت المعركة التي تدار بين جيش وشعب، تحسم في نهاية الأمر لمصلحة انتصار الشعب، ممّا يجعل انتصار القوّة العسكرية الهائلة غير ممكن في ظلّ دور الصواريخ والأسلحة الخفيفة».

ودعوتي للمجتمع الدولي هي «تأسيس صندوق وطني أو دولي لتمويل عودة اللاجئين اليهود إلى أماكنهم وبلادهم الأصلية».

هجرته إلى لبنان

من حسن الحظّ أنّنا هاجرنا إلى لبنان هكذا يقول طلال أبوغزاله، ذلك البلد الذي احتضنني وعائلتي بعد نكبة تهجيرنا القسريّ من بلادنا، وهو البلد الذي تعلّمت فيه كل المراحل الدراسية وكان شعبه كريماً.



الهيئة العربية العليا
فلسطين

رقم الهوية ١٤٠٠٦
الاسم والشهرة السيد طلال ابو غزاله
اسم الوالد الحاج توفيق ابو غزاله
اسم الوالدة وشهرتها السيدة اديبة ابو غزاله
تاريخ ومحل الولادة يافا
الجنسية فلسطيني
المهنة طالب
الوضعية العائلية اعزب
العنوان الطريق الجديدة - بيروت

الاوصاف
القامة ١٢٨ سم
الشعر خرنوبي
العينان سوداوان
الانف عادي
اللون قمحي
العلامات المميزة //

طابع الابهام الايمن او توقيع حامل الهوية

رقم السجل
هذه الهوية لاثبات شخصية حاملها فقط
القائم بأعمال الهيئة العربية العليا
اعطيت بتاريخ ١٩٥١/٢/٢٦
صالحة لغاية ١٩٥٢/٢/٢٦

رحلت مع عائلتي إلى لبنان وقت أن كان عمري عشر سنوات -طفل- بعد النكبة الفلسطينية عام ١٩٤٨ إلى قرية «الغازية» في جنوب لبنان التي تبعد ربع ساعة عن مدينة صيدا الساحلية.

يسرد حكايته وهجرته من فلسطين وطنه الأمّ إلى لبنان فيقول: كنا نجلس وعائلتي على سطح بيتنا في يافا حينما سمعنا نداءات بمكبرات الصوت تقول «اخرجوا من منازلكم وتوجهوا إلى الشاطئ للسلامة من العمليات العسكرية»

كان النداء باللغة العربية وتساءل طلال «هل كان الصوت من المنظمات العربيّة، أم كان مخطّطاً يهوديّاً للتهجير، هل كان الصوت من فلسطيني أم من يهودي؟ لا أعرف».

عندما سمع والدي النداء واقتنع الجميع بأنّ هذا هو المطلوب لسلامة العمليات العسكرية، توجهنا جميعاً إلى الميناء مشياً على الأقدام، لقد تركنا كلّ شيء وراءنا أغراضنا، بيتنا، أموالنا، ومزرعتنا وحافلاتنا، كلّ شيء لم نأخذ معنا شيئاً، كان النداء طارئاً، لقد وجدنا باخرة شحن بضائع تنتظرنا، فصعدنا عليها ولم نعرف إلى أين تقودنا تلك السفينة؟ كنت أتألّم وأنا في الباخرة بالرغم من صغر سنّي لقد أدركت كلّ شيء ومع أنّ المسافة من يافا إلى شاطئ جنوب لبنان ليست ببعيدة إلّا أنّ الرحلة استمرّت أسبوعين، لم تكن الباخرة مهيأة لنقل الرّكاب، لقد كانت لنقل البضائع، أذكر أنّ أحد المهجرين مات على ظهر الباخرة فما كان من عمّالها إلّا ان ألقوه في عرض البحر، حينها أدركت أنّ هذا النداء لم يكن نداء وطنياً وإنمّا مؤامرة لتهجيرنا، وجدت نفسي وعائلتي في عرض البحر تقلنا مراكب للشحن تقودنا إلى ضفاف نائية حيث حطّت بنا الباخرة في قرية الغازيّة في جنوب لبنان.

أصبحت لاجئاً مهجّراً في لحظة واحدة شعرت بألم اللجوء كيف كنت أعيش في بيتنا في مزرعتنا، وكيف انقلب الحال إلى هذا الطريق؟

كان عليّ أن أفكّر مليّاً: «كيف ستمضي بنا الأيام؟ كنت بعمر عشر سنوات، كانت تدور بعقلي أفكار غريبة كيف أحول نقمتي إلى نعمة كنت أسير إلى المدرسة، طفلاً لا املك سلاحاً ولا قوة ولا عضلات، كيف لي أن أنتقم من هذا العدوّ المجرم، ما الذي عساي أن أفعله؟ فاتّخذت قراراً صعباً قرار الطريق الطويل أن أقدم للعالم نموذجاً لإنسان عربيّ يثبت قدرتنا على المقاومة واستعادة الوطن المغتصب لقد كنت مؤمناً أنّ لعودتنا إلى وطننا طريقاً واحداً من خلال التفوّق العلميّ والحضاريّ والإبداعيّ، لقد قرّرت أن أبنى مؤسسة عالمية فلسطينية تقول للعالم إنّنا شعب يستحق الحياة، ونحن باقون، كان طموحي أن أظهر للعالم عظمة الإنسان العربي فكان هذا طريقي».

يكمل فيقول: عندما ألقتنا الباخرة على ضفاف قرية الغازية جنوب مدينة صيدا، استضافنا صديق لوالدي قديم تربطه به علاقات تجارية بحكم عمله قبل

النكبة يلقب بالحاج «رضا خليفة» وهو مختار لبنانيّ من المعروفين في لبنان واستضافنا في إحدى دياره التي كان يقطنها أحد أبنائه فلم نعامل كلاجئين ولم نسكن الخيام ولكن كانت تعطى لنا الحصص التموينيّة التي كانت توزعها «وكالة الغوث ـ الأونروا».

كان الحاج رضا خليفة يوصي الدكاكين بالقرية بعدم تقاضي ثمن لما كنا نشتريه باعتبارنا ضيوفاً عليه فكان يوصيهم بمحاسبته هو لقد كان رجلاً أصيلاً وكريماً هكذا هي أخلاق العرب، لقد كان يدعوني لمرافقته لاجتماعاته المسائية مع الرجال من عمره وعمر والدي، وكانوا يتناولون مشروب «المتّا» ـ مشروب ساخن شبيه بالشاي، تعلّمت في هذه الجلسات الكثير، لقد كان لجلوسي مع من يكبرني بعقود متعة أفادتني كثيراً.

كان يحرص على حضوري الجلسات معه.

أحتفظ في مكتبي بشهادتي كلاجئ فلسطيني.

كنت مضطرّاً للذهاب إلى المدرسة سيراً على الأقدام للوصول إليها، كان عليّ أن أسير ساعتين ذهاباً وإياباً في أيّام الصيف والحرّ وأيام المطر والثلج والبرد الشديد، أذكر أنّني وصلت في أحد الأيّام إلى الفصل وكانت ثيابي مبلّلة، وظنّ الطلّاب أنّي خارج من بركة سباحة في تلك اللحظة.

لم أحزن لتعالي أصوات ضحكاتهم ففي اليوم التّالي فوجئت عند وصولي بتصفيق حارّ يصدر منهم، علمت لاحقاً أنّ أحدهم أخبرهم أنّني أسير ساعتين تحت المطر مجبراً لأصل إلى مدرستي.

دراسته

يتحدّث طلال أبوغزاله عن دراسته فيقول: بدأت دراستي في مدرسة «الروم الأرثوذكسي» في يافا ثمّ في المدرسة «البروتستانتيّة» في صيدا في لبنان، تربّيت على الأخلاق والقيم المسيحيّة التي أكسبتني مبادئ القناعة والرضا كنت أؤمن بعبارة صباحيّة كنا نردّدها في الصباح كلّ يوم «ربّنا أعطنا كفاف يومنا».



طلال أبوغزاله في المرحلة الابتدائية في بيروت

وعن مرحلة الدراسة الثانوية في حياته فيقول: انتقلت إلى مدرسة «المقاصد الإسلاميّة» في صيدا لاستكمال دراستي الثانوية، في ذلك الوقت لم أكن أملك قرشاً من المال، فذهبت إلى مدير المدرسة لأخبره بأمري، كان عليّ أن أقنعه بما يدور برأسي كي أستطيع أن أكمل دراستي فأخبرته أنّني أرغب بالحصول على منحة مجّانية لكنّه بادرني بالقول بأنّ المنح قد قُرِّرَت وانتهى أمرها، فعقدت صفقة معه إن لم أحصل على المرتبة الأولى على المدرسة أقوم بدفع

الأقساط كاملة، أُعجِب بثقتي وغامر معي وقَبِلَ التحدّي مقابل منحة دراسيّة سنة كاملة، ولكنّه اعترفَ أنّ السيّد «محمد سلام رحمه الله» مدير المدرسة كان داعماً لي، لقد كنت موضع عناية خاصّة وشخصيّة منه، وبالفعل حصلت على المرتبة الأولى.

في هذه المدرسة تعلّمتُ القرآن الكريم وحصلتُ على أوّل جائزة وهي ساعة يد، لحفظي القرآن الكريم ترتيلاً وتجويداً، كانت أوّل ساعة يد أرتديها في حياتي.

كان والدي يرى الخير بي، وأنّني مشروع الخير له وللعائلة، كان يخبرني أنّني ربّ الأسرة بحكم كِبرَ سنّه، وأنا التلميذ المتفوّق وحصلت على منحة، كان عليّ أن أتحمّل مسؤوليّة عائلة بأكملها وأُنفِق عليها فما كان منّي إلّا أن أبحث عن عمل يحقّق دخلاً يعود على أسرتي بما يكفي احتياجاتهم ومستلزماتهم الحياتيّة، فقرّرت حمل صندوق الآيس كريم «البوظة» على ظهري وكانت تُسمّى بوظة «إيفرست» فأسير في الشوارع لأبيع وأنادي بأعلى صوتي «بوظة ستيك... بوظة ستيك» ولا أكتفي بذلك بل كنت أغادر منزلي في الخامسة صباحاً لأباشر عملاً آخر في «سوق الخضار» أحسب لهم تكاليف صناديق الخضار من تاجر الجملة إلى تاجر التجزئة، ثم أعود إلى البيت في السابعة صباحاً أبدّل ثيابي وأذهب إلى مدرستي.

وبعد عودتي من المدرسة أتابع عملاً جديداً فأعطي دروساً في مدرسة بنات في اللغة الإنجليزية، وكانوا في المرحلة الثانوية التي أدرس بها ثمّ عملت في ترجمة العديد من الكتب الأجنبيّة وأفادتني الترجمة في تحسين لغتي الإنجليزية، وتعلّمت منها الكثير الذي أفادني بعملي فيما بعد، ومن أحد الكتب الأجنبية التي ترجمتها كتاب «التّخطيط الاستراتيجيّ» كيف يتمّ التخطيط الطويل والقصير الأجل، ثمّ عملت كبائع أسطوانات موسيقى في محلّ موسيقيّ ولّدَت لديّ حبّاً وشغفاً للموسيقى.

منذ كان عمري عشر سنوات وحتّى تخرّجي كان يجب عليّ أن أعمل ليلاً ونهاراً بجانب الدراسة، حتّى أستطيع أن أنفق على نفسي وأهلي وعائلتي، وعملت بائعاً في محلّ يبيع الأسطوانات الموسيقيّة، وبحكم المهنة عليّ أن أقنع الزبائن بشراء مقطوعة «بيتهوفن» أو «موزارت» الموسيقا العالميّة، خاصّة أنّ المحلّ كان متخصّصاً في الموسيقى الكلاسيكيّة، كان عليّ أن أفهم ما أبيعه حتّى

أستطيع أن أقنع زبائن المحل، اتّجهت إلى القراءة العميقة في الموسيقى، في محاولة لفهم ما أسمعه، في هذه المرحلة بدأ عشقي للموسيقى وبدأت أتذوّقها، بل أصبحت مستمعاً جيّداً، وأتذكّر أنّه في أحد الأيّام فوجئت بصاحب المحلّ يبلغني قراره بالاستغناء عن خدماتي لأنّ ابنه سيأخذ مكاني في المحلّ، فوجئ الرجل بترحيبي بوجود ابنه في العمل معي، قال لي: ولكني لن أستطيع أن أدفع لك راتباً، قاطعته: أمس كنت أستمتع بالموسيقى وأتقاضى أجراً واليوم سوف أستمتع بها دون أجر، وحتّى في هذا الوضع أنا المستفيد لأنّني سوف أستمتع بها بالمجّان، كنتُ أشرحُ لصاحب المحلّ وجهة نظري وهو ينظر إليّ على أنّني مختلّ خلال هذه التجربة الرّائعة في حياتي تعلّمت منها حبّ الموسيقى، وتعلّمت أنّك إذا أردت أن تنجح في أيّ شيء يجب أن تحبّه، لا يمكنك أن تؤدّي عملاً منتجاً مرضياً للغير إذا لم تكن أنت مقتنعاً به ومحبّاً له، من هنا أصبحت أحبّ كلّ ما أمارس من عمل لكي أنجح فيه.

من أطرف ما حدث معي حين جاء أبي ذات يوم ليخبرني أنّ أخي الكبير ـ كان يبلغ حينها من العمر ثلاثين عاماً وكان يعمل مدرّساً- لا يذهب إلى عمله ويبقى نائماً في الصباح لساعات متأخّرة، كنت أبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، فذهبتُ إليه لأستفسرَ منه عمّا يمنعه من الذهاب للعمل فأخبرني أنّه لا يستطيع الاستيقاظ مبكراً لأنّه لا يقاوم النوم فيتأخّر ممّا جعل المدير يطرده من المدرسة، فاقترحت عليه أن أتوسّط له لدى المدير ليعيده إلى العمل، على أن لا يتكلّم نهائيّاً ويترك لي دفّة الحوار... فوافق أخي وذهبنا معاً لمقابلة المدير الذي صُدِم عندما رأى طفلاً صغيراً جاء يفاوض على عودة أخيه الذي يكبره بخمسة عشر عاماً إلى العمل... لكنّي كنت واثقاً جدّاً أنّني سأجني خيراً... رفض المدير في البداية معتذراً أنّ أخي غير ملتزم بالحضور باكراً فعقدت معه اتّفاقاً، إنّ على أخي أن يلتزم بالحضور للعمل يوميّاً وباكراً لمدّة ثلاثة أشهر دون أن يسلّمه أيّ راتب وإذا استمرّ بالانتظام يسلّمه راتبه عن تلك الفترة، فوافق المدير وعاد أخي إلى عمله والتزم به.

يستكمل أبوغزاله مراحل تعليمه التي وصلت للمرحلة الجامعيّة فيقول: من نعم الله عليّ أنّني حصلت على منحة أخرى في الجامعة الأمريكيّة ببيروت لإكمال دراستي الجامعيّة -وأنا أدين لدولة لبنان بهذا الفضل بعد الله سبحانه وتعالى- كانت منحة تشمل التّعليم والسكن والكتب وحتّى الطعام، كلّ مراحل تعليمي كانت منح، على سبيل المثال منحة دخولي الجامعة وكانت مشروطة

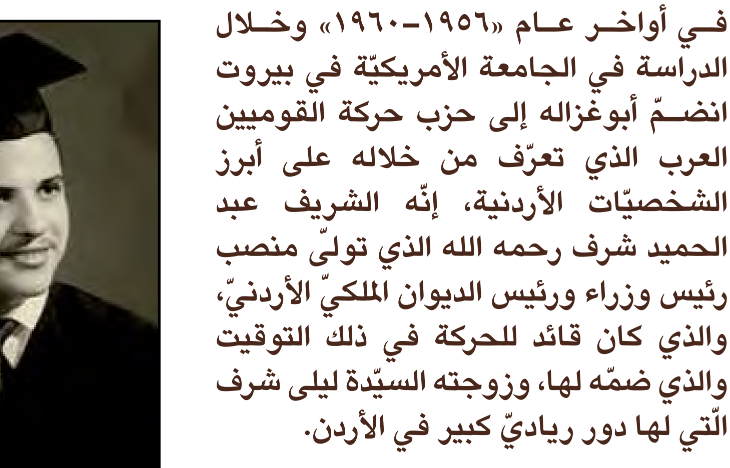
بأن أكون الأوّل على لبنان، كنت أفكّر دائماً في عائلتي، كنت سعيداً وأنا أحتفظ لهم بحبّات الفاكهة التي كانت تُوَزَّع لنا مع كلّ وجبة يوميّاً كـ «التفاح، الموز، البرتقال» فأجمعها وأحملها لعائلتي وأعود بها في نهاية كلّ أسبوع ونستمتع بأكلها معاً– كانت لتلك الأيام متعة ولذّة –أقدّر تلك اللحظات ولازلت، كان عليّ أن أركب القطار المتّجه إلى بلدتي وفي أحيان كثيرة كنت أغادره لأستقلّ قطاراً آخر كلّما اقترب منّي المفتش كي لا أدفع الأجرة لأنّه بصراحة لم يكن لديّ ثمن التذكرة.

اجتزت امتحانيَ القبول في اللغتين العربيّة والإنجليزية بنجاح فأعفيت من المادّتين وفضل ذلك يعود لحفظ القرآن الكريم والفائدة الكبيرة من ترجمة الكتب الأجنبيّة.

عشقي للّغة الإنجليزية قادني لدراستها في كليّة الآداب إلّا أنّني لم أتمكّن من التسجيل بسبب انتهاء وقت التسجيل بذلك اليوم... كنت برفقة صديقي الذي نصحني أن أسجّل لدراسة التّجارة مثله، وفكّرت أنّها أيضاً رغبة والدي أن أعمل بالتجارة فكان أن درست التجارة وإدارة الأعمال.

في أواخر عام ١٩٥٨ وفي إحدى سنوات الجامعة أعلن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالجمهورية العربية المتحدة «مصر» آنذاك بين طلاب الجامعات والمعاهد العليا بالبلدان العربيّة عن مسابقة القصّة القصيرة وشاركت بقصّة بعنوان «الصّدى اللعين» وكنت حينها أعيش مأساة احتلال فلسطين وأثارت في قضيّتي وحلمي الكبير بأمل العودة لأرض اغتُصِبَت وتشرّد شعب بأكمله وضاع مستقبله، فكتبت من واقع حال نعيشه، وفازت القصّة وحصلتُ على مبلغ ٥٠٠ جنيه مصريّ وكان مبلغاً كبيراً بالنسبة لي لم أكن أحلم به، لم أكن أعرف ماذا أصنع به.

ما بعد السياسة



فـي أواخـر عـام «١٩٥٦-١٩٦٠» وخـلال الدراسة في الجامعة الأمريكيّة في بيروت انضمّ أبوغزاله إلى حزب حركة القوميين العرب الذي تعرّف من خلاله على أبرز الشخصيّات الأردنية، إنّه الشريف عبد الحميد شرف رحمه الله الذي تولّى منصب رئيس وزراء ورئيس الديوان الملكيّ الأردنيّ، والذي كان قائد للحركة في ذلك التوقيت والذي ضمّه لها، وزوجته السيّدة ليلى شرف الّتي لها دور رياديّ كبير في الأردن.



التخرج من كلية إدارة الاعمال - ١٩٦٠

فـي عـام ١٩٥٩ وبالضّبـط فـي العيـد الأوّل للوحدة بين الجمهوريّة السوريّة والجمهورية اللبنانيّة قرّرت الحركة السير في مظاهرة طلّابيّة تأييداً لها تنطلق من الجامعة إلى دمشق، وانطلقت عدّة مركبات كبيرة وصغيرة وكانت مسؤوليّة «أبوغزاله» قيادة المظاهرة وتمّ التّخطيط لها جيّداً وبالمقابل كانت هناك حركة طلّابيّة مضادة لمنع المظاهرة وهي تُسمّى الآن «المقاومة المسيحيّة» «حركة الكتائب» وأوشك الوضع على نشوب احتكاك وعراك بين الفئتين، كان في ذلك الأثناء «أبوغزاله» يدير المظاهرة دون أن يظهر كشخص بينهم واقتصر دوره على التنظيم فقط، وجاءه عميد الطلبة السيد «دين ملكيان» وكان يعلم بأن «أبوغزاله» هو المنظّم للمظاهرة من خلال استخبارات الجامعة، وطلب منه إيقاف المظاهرة، فأنكر وادّعى بعدم معرفته بما يقول وتجاهل كلامه تماماً وأنّه لا علاقة له بما يقول، إلّا أنّه حذّره من اتّخاذ إجراء صارم ضدّه إن لم تقف تلك المظاهرة، فأبلغ «أبوغـزاله» رسالة للتنظيم من خلال سلسلة أشخاص لإبلاغ القائد الشكليّ للمظاهرة، وقرّروا فضّ المظاهرة، وتسيّيرها من خارج الجامعة ثمّ انطلقت مرّة أخرى المسيرة، ووصلت إلى دمشق وهناك استغلّت بعض الأحزاب في دمشق المظاهرة لتدخل بينهم ولكنّهم تمكّنوا من الخلاص منهم.

يقول أبوغزاله: بعد عودتنا من دمشق وُجِّه إليّ إنذار من إدارة الجامعة لمنعي من المشاركة بأيّ نشاط وبكلّ أشكاله.

بالرّغم من عمق العلاقة الطيّبة بيني وبين عميد الكليّة لكنّه عاتبني بودّ عمّا قمت به، كان صعباً عليه أن يتفهّم تصرّفي لأنّه باختصار ليس لاجئاً – إنّ ما قمت به من أجل فلسطين وقضيّتها.

اضطرّ أبوغزاله إلى ترك حركة القوميين العرب بالجامعة وكان أمامه خيار أن يترك الحركة ويمتنع عن أي نشاط سياسيّ أو يُطرَد من الجامعة، بعد توجيه إنذار رسمي بطرده، فما كان منه إلّا أن ترك الحركة مجبراً ليستمرّ في إتمام دراسته، والتخرّج لمتابعة خدمة قضيّته وأسرته، وكانت تلك رغبة والده بالبعد عن السياسة، كما كان يوصيه بعدم الخوض بأكثر من طريق، الإبداع يأتي باختيار طريق واحد.

تعلّم أبوغزاله من الحركة إدارة المنظّمات وضبط العمل والتّدريس وتنسيق الاتّصال واستقطاب الأعضاء، واستفاد من الحركة بتأسيس مؤسّسته، سُئِل «فراكلين روزفلت» كيف ربحت الحرب؟ قال: «لا لقد أدرت الحرب».

يقول عن الدراسة في الجامعة الأمريكيّة، لقد جاءت هذه المرحلة مكمّلة لما رسمته لنفسي وأنا أسير بين صيدا والغازية، في عمر الثاني عشر والثالثة عشر، رسمت هدفاً واضحاً، أنّني إذا تعلّمت يجب أن أكمل تعليمي الجامعي وبعدها أعمل وأنجح في عملي. دخلت الجامعة الأمريكيّة خرّيجاً من مدرسة المقاصد وأعفيت من دراسة اللغة الانجليزيّة والعربيّة في الجامعة لأنّ قدراتي ومستواي كانا أعلى من مستوى الصّف الذي يجب أن أدخله «مدون على الشهادة نجح بالإعفاء»، وأعفيت من اللغة العربية بسبب إتقاني في المقاصد تلاوة وحفظ القرآن الكريم، والإنجليزية بسبب عملي في الترجمة وفي كلّ ماله علاقة باللغة الإنجليزية، وهذا شكل مصدر اعتزاز لي، وكان أمامي تحدٍّ وهو الدراسة ويجب أن أتفوّق لأنّ المنحة كانت تشترط التفوق، وتمكّنت بفضل الله وبنعمة المعاناة من التخرّج بتفوّق من الجامعة الأمريكيّة.

كانت هناك علاقة احترام مع الدكتور جورج حبش، وكان رجلاً وطنيّاً مناضلاً من أجل خدمة قضيّة فلسطين بعيداً عن أيّ شيء.

في تلك الفترة كنت قد خذلت والدي لأنّني لم أعمل بنصيحته، وأبتعد عن السياسة.

وكانت نصيحة والدي أن أختار خطّاً واحداً، وأبدعُ فيه كان يقول: كي تنجح اختر خطّاً، لا تعمل سياسيّاً ورجل أعمال ومفكّراً ومبدعاً.

بعد تخرّجي في الجامعة قرّرت بشكل نهائيّ الابتعاد عن العمل السياسيّ والتركيز في مجال تخصّصي كرجل أعمال واقتصاد وهو الموقع الذي أخدم من خلاله قضيّتي بالطريقة التي أجيدها وأعبرّ فيها كما ينبغي وتركت لأهل السياسة المجال.

ووجهة نظري في ذلك أنّ كلّ إنسان عليه أن يعمل في الموقع المناسب حتّى يحدث ما يسمى التّكامل في خدمة القضيّة وعدم خلط الأوراق، فهناك اعتقاد قد يكون في غير مكانه، وهو أنّ خدمة فلسطين والقضيّة تأتي عبر العمل السياسي. هذا طبيعي جدّاً ولا اعتراض عليه ولكن الرؤية الأشمل التي كان يؤمن بها الراحل ياسر عرفات هي أنّ كلّ فلسطيني يخدم قضيّته من الموقع الذي يعمل به وتكون الخدمات مؤثّرة ومهمّة.

فالقضية الفلسطينية هي لُبّ الصراع العربي الإسرائيلي وهي حياة الفلسطينيين والأمل الكبير الذي من أجله يعيشون، وهي في ضمير كلّ فلسطيني تحيا وتعيش وستبقى بعيداً عن الشعارات أو الخطب الحماسيّة فهي في الدّم تجري.

كلية طلال بالجامعة الأمريكية

لم ينس «طلال» فضل جامعته عليه، وفضل لبنان كلاجئ احتضنه وعائلته بعد النكبة... حيث عقد اتّفاقاً مع إدارة الجامعة الأمريكيّة ببيروت على إجراء تعاون يسمح له باستخدام أحد المباني القديمة جدّاً لدى الجامعة كمقرّ للتدريب مقابل نسبة ماليّة للجامعة متَّفَق عليها، كانت تجربة ناجحة وغير مسبوقة، وتقديراً من الجامعة قامت إدارة الجامعة بتكريمه من خلال وضع لوحة على مبنى الكليّة باسم «كليّة طلال أبوغزاله لإدارة الأعمال» وهي المرّة الأولى التي تقوم الجامعة الأمريكية ببيروت بتكريم أحد طلّابها الذين درسوا لديها بتسمية كليّة باسمه عام ١٩٧٨.



يتحدث لأساتذة وموظفي الجامعة الامريكية

واستمرّ ذلك الاتفاق عشرة أعوام، ثمّ بعد ذلك تنازل أبوغزاله لصديقه رفيق الحريري رئيس وزراء لبنان الأسبق الذي كانت تربطه به صداقة قوية لتُسمّى الكليّة باسمه ولا تزال باسم الحريري.

ويقول: في كلّ مناسبة أقف معتزّاً بشهادتي التي حصلت عليها من هذه الجامعة التي تخرّج منها رموز في العالم وأبرز القادة في لبنان والوطن.

وهناك شهادة أخرى في حقّ طلال أبوغزاله جاءت في كتاب شيوخ أمريكا (American Sheikhs) حيث يعتبره أحد أبرز خريجيّ الجامعة الأمريكيّة.

وجاء في الكتاب لمؤلّفه بريان فان دي مارك وهو صاحب مؤلفات (حفظة باندورا: تسعة رجال والقنبلة الذرية، وكتاب، إلى الوحل: لايندون جونسون وتصاعد وتيرة حرب فيتنام) والذي يتناول العلاقات الأمريكية مع الشرق الأوسط والتحديات والجهود التي أدّت إلى قيام عائلتين ببناء جامعة عظيمة تتعاقب فيها الجرأة، والكبرياء، والكرم، والأبوّة، والرؤية.

ويروي كتاب شيوخ أمريكا قصّة واحدة من أعظم المؤسّسات التعليميّة وهي الجامعة الأمريكية في بيروت والعائلات التي قامت بتأسيسها ودعمها على مدى مائة وخمسين عاماً تقريباً.

وأشار الكتاب إلى أنّ الدكتور أبوغزاله، وهو لاجئ فلسطيني انتهج في حياته «مبدأ نعمة المعاناة، ونقل المعاناة إلى نعمة كبرى»، حيث تَلَقّى منحة دراسيّة، وكانت تلك المرّة الأولى التي يحصل فيها طالب على منحة دراسية من الأونروا نظراً لتفوّقه على مستوى لبنان عام ١٩٥٦.

وفي عام ١٩٨٠، تمّت دعوته إلى الانضمام إلى مجلس أمناء الجامعة الأمريكيّة في بيروت وإلى جانبه، اشتملت القائمة التي وردت في الكتاب على مشاهير خريجي الجامعة من أمثال الزعيم اللبناني الدرزي وليد جنبلاط وطاهر المصري رئيس مجلس الأعيان ورئيس الوزراء الأردني السابق ومحمد نجيب ميقاتي رئيس وزراء لبنان السابق، والدكتورة حنان عشراوي القيادية الفلسطينيّة، ومحمّد الصفدي وزير الماليّة اللبناني السابق وعلي فخرو وزير التعليم البحريني السابق، وعلي النعيمي وزير البترول بالمملكة العربية السعوديّة سابقاً، وخالد القصيبي وزير الاقتصاد والتخطيط السعودي سابقاً، وفؤاد السنيورة رئيس وزراء لبنان الأسبق والشيخة حصّة الصباح ابنة أمير الكويت الثاني عشر الشيخ صباح السالم الصباح. والدكتور خالد طوقان خالد عوني عبدالرحمن طوقان هو رئيس مجلس هيئة الطاقة الذرية الأردنية، أستاذ في

الجامعة الأردنيّة، ووزير «التربية والتعليم» و«التعليم العالي» السابق في الأردن، والدكتور وجيه عويس وزير التعليم العالي والبحث العلمي بالأردن، ومها الخطيب وزيرة السياحة الأردنية وآخرين.

ويقدّم الكتاب القصّة بأسلوب بليغ وروائي لتاريخ الجامعة التي اعتبرت أنها الجّامعة الأكثر تأثيراً في التاريخ بسبب نهجها الشمولي ورؤيتها المتطلعة إلى المستقبل.

ووصف المؤرخ الرئاسي الأمريكي روبرت داليك الكتاب بأنه: «دراسة ممتازة حول موضوع مهمل. ويُفترَض أن يكون مفيداً لأيّ شخص يهتمّ بالعلاقات الأمريكية مع الشرق الأوسط والصعوبات المستمرة التي نواجهها في المنطقة».

وبأسلوب يمتاز بالبساطة والإمتاع، يُجري الكاتب تتبّعاً دقيقاً للتطوّر على مدى مائة وخمسين عاماً من التاريخ الذي يُعتبر متطلّباً مسبقاً لفهم التحديات التي تواجهها أمريكا في العالم العربيّ حاليّاً، حيث يضع طرحاً مفاده أنّه مازال بوسع الجامعة الأمريكية في بيروت أن تعرض بدلاً من أن تفرض أفضل ما في القيم الأمريكيّة.

في العام ٢٠١٦، وبمناسبة الذكرى المائة والخمسين على تأسيس الجامعة الأميركية في بيروت، كُرّم رجل الأعمال الفلسطيني الدكتور طلال أبوغزاله خلال حفل أقامته الجامعة تكريميا لخريجيها السابقين من كافة أنحاء العالم وذلك في ذكرى تخرجهم الذهبي ٥٠ والفضي ٢٥.

جواهر الشرق

ويوثّق مقالاً نشرته صحيفة السفير اللبنانية، أعدّه قسم التوثيق والبحوث الذي يُشرف عليه رئيس تحرير الصحيفة الكاتب طلال سلمان، نماذج مشرّفة للفلسطينيين في لبنان بعنوان «الفلسطينيون جوهرة الشرق» نُشِر في يونيو / حزيران عام ٢٠٠٩.

يعتزّ طلال أبوغزاله بأنّه واحد من بين هؤلاء الكبار الذين حملوا لواء قضيّة فلسطين في مجالات الاقتصاد والأدب والفن والفكر والتجارة وعلوم الطيران المدنيّ.

يقول المقال: إنّ الازدهار اللبنانيّ والانتعاش الاستثماريّ بدأ بعد نكبة فلسطين عام ١٩٤٨، وذلك بسبب حجم الدّور الإيجابي الذي لعبه الفلسطينيون في لبنان، حيث حملوا معهم ما قيمته خمسة عشر مليون جنيه أي ما يعادل مليار دولار بعملة اليوم أنعشت الاقتصاد اللبناني، كما أنّ انهيار ميناء حيفا ساهم في تنشيط ميناء بيروت وتحوله إلى مركز تجاري لشرق المتوسط عامة.

ثم يستعرض المقال أسماء الفلسطينيين الذين ساهموا في نهضة لبنان الحـديث، فأوّل بنك أنشأه الفلسطيني يوسف بيدس وهو الذي أنشأ كازينو لبنان، وطيران الشرق الأوسط. كما أنشأ الفلسطينيّون في لبنان أوّل مصنع نسيج للملابس الجاهزة وأول شركة هندسيّة كبرى وأوّل شركة تأمين وأوّل شركة لتوزيع الصحف، وأوّل شركة تدقيق حسابات وأوّل محلّات سوبر ماركت، ونظام الشقق المفروشة، وأوّل من قاد طائرة الجامبو لشركة طيران الشرق الأوسط وأوّل من رفع علم لبنان في القطب الجنوبي الفلسطيني اللاجئ في لبنان جورج دوماني.

ثم يأتي المقال على أسماء الفلسطينيين الذين أنعشوا التعليم، خاصّة باللغة الإنجليزية، في الجامعة الأمريكية في بيروت ولمع منهم طلال أبوغزاله وحسيب الصباغ وكمال الشاعر وإحسان عباس ومحمد يوسف نجم ويضيف، ومن بين أساتذة الجامعات الفلسطينيين نقولا زيادة وبرهان الدجاني ونبيه

أمين فارس وصلاح الدباغ ونبيل الدجاني ويوسف الشبل وجين مقدسي وريتا عوض وفيكتور سحاب ويسرى جوهرية عرنيطة ورجا طنّوس وسمير صيقلي ومحمود زايد وعصام مياسي وعصام عاشور وطريف الخالدي. ويؤكّد الكاتب أنّ عدد خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت من الفلسطينيين يكاد يساوي عدد اللبنانيين.

كما يستعرض كوكبة من الفلسطينيين المبدعين في مجالات الفنّ والموسيقى والمسرح ومن بين من يذكرهم: الموسيقي والإذاعي المبدع حليم الرّومي الذي أطلق على صوت نهاد حداد لقب فيروز، وهو والد الفنانة الكبيرة ماجدة الرومي. كما أسّس صبري الشريف أوّل فرقة مسرحية أثرت على عمل آل رحباني وأنشأ مروان جرار ووديعة حداد جرار أوّل فرقة فنون شعبية.

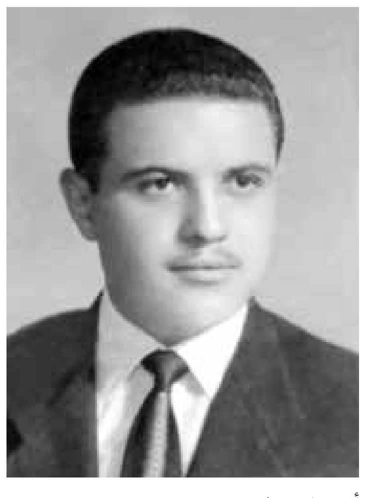
من الفلسطينيين في لبنان كان هناك مجموعة لها شأن وأثر كبير في انطلاقة الصحافة اللبنانية التي برّت كل نظيراتها العربية ومن بينهم غسان كنفاني ونبيل خوري ونايف شبلاق وتوفيق صايغ وكنعان أبوخضرا وجهاد الخازن ونجيب عزام وإلياس نعواس وسمير صنبر وإلياس صنبر وإلياس سحاب وخازن عبود ومحمد العدناني وزهدي جار الله وليس آخرهم سمير قصير، وهناك المئات من الأسماء المرموقة.

الفصل الثالث

علامة لا تخطئها العين...
مجموعة طلال أبوغزاله
رحلة العمل

بعد تخرّجي من الجامعة، كنت لا أريد أن أبقى يوماً واحداً دون عمل وبدأت في التواصل مع الشركات والمؤسّسات بهدف الحصول على فرصة عمل.

كنت أتقدّم بطلبات لشغل وظيفة في العديد من الشركات في لبنان ودول الخليج العربي، وكانت الاعتذارات تتوالى، لم أشعر في أيّة لحظة بالإحباط أو الفتور وواصلت، بل كنت واثقاً من أنّ الفرصة ستأتي في الوقت المناسب.



أبوغزاله عام ١٩٦٢

أحتفظُ في منزلي بحقيبة كبيرة تحتوي على جميع الرّدود التي وصلتني من أصحاب العمل، والشركات التي كانت تعتذر عن عدم قبولي في الوظيفة التي تقدّمت إليها.

كانت أسباب رفض الشركات التي تصلني: ليس لدينا مكان شاغر في المؤسّسة، كما كانت بسبب عدم وجود سنوات خبرة سابقة لديّ تتناسب مع الوظيفة التي تقدّمت لها.

بعد توالي الاعتذارات بدأت أهتزّ نوعاً ما، هذا طبيعيّ، لكنّني لم أشعر بالإحباط كان لديّ إصرار كبير على مواصلة البحث وطرق الأبواب.

ومن هذه التجربة التي مرَرْتُ بها قرّرْتُ أن تكون الأولويّة في سياسة التشغيل في مجموعة طلال أبوغزاله للخرّيج الحديث الّذي لا يحمل شهادات خبرة، وكلّما سمعت من مسؤول بالمجموعة التحفّظ على عدم تعيين حديثيّ التخرّج بسبب عدم الخبرة، أطرح عليه السؤال: وهل عندما تسلّمْتَ العمل في المجموعة كنتَ تمتلكُ الخبرة؟

من الطبيعيّ ألّا تكون مع الخرّيج الحديث شهادات للخبرة ومهمة المؤسّسات والشركات العمل على تدريبه وتجهيزه.

أوّل فرصة عمل لي بعد التخرّج جاءت في الكويت.

هذا البلد الذي أعشقه، فأنا كويتيّ وكلّ الخير الذي أنا فيه بعد الله سبحانه وتعالى من الكويت.

كانت فرصة العمل في شركة «سابا وشركاه» بالكويت، وهي من الشركات الكبيرة والمشهورة التي كانت تعمل في مجال المحاسبة والتدقيق، ولم يعُد لها وجود الآن لاندماجها مع شركة «ديلويت» الأمريكيّة.

بدأت في الكويت وعشت فيها ثلاثين سنة كاملة وبضمير أقول: بعد الله ووالدي وأمّي إذا كان لأحد فضل عليّ فهو الكويت.

دولة الكويت التي انطلقت مجموعتنا منها حالة خاصّة معي وارتباط عميق وولاء مطلق للأرض والشعب والأسرة الحاكمة، الفرص التي أعطتها لي لم تُقدّم لمواطن كويتيّ حتّى من أبناء العائلة الحاكمة ولا من مجتمع رجال الأعمال.

هذا البلد أكرمني، ونعمتُ بالحياة مع أهله الكرام وأقول هذه الشهادة لا من باب المجاملات أو مجرّد الشكر ولكن لإرضاء الضمير وقول الحق.

كان الانتقال من بيروت إلى الكويت حيث درجة الحرارة المرتفعة واختلاف الطقس مع ارتفاع في نسبة الرطوبة والرياح المحمّلة بالأتربة، امرأ صعباً في ظلّ عدم مقدرتي على شراء جهاز تكييف، وكنت أقضي كلّ الوقت في المكتب، وفي كثير من الأحيان كان مدير الشركة يغلق عليّ الباب من الخارج لأظلّ طوال الليل على المقعد في العمل المتواصل.

تعلّمت أنّ العمل يحتاج إلى تطوير، وطبيعتي لا تعرف القبول بالحدود الدنيا في العمل أو الحياة، كنت طوال الوقت أفكّر في كيفيّة تطوير الشركة فتح مجالات عمل جديدة وأبوابٍ أخرى لم يتمّ دخولها من قبل. في بعض الأحيان يكون الطموح والرغبة فيٍ المزيد من النجاح سبباً في مشاكل غير متوقّعة وحدث هذا معي في شركة سابا حيث لم يكن مرحّباً بالكثير من هذه الأفكار، ولا مرحّباً بمساعدتي في إنجازها. كنت أمام بديل واحد لا غير: وهو أن أستمرَّ في الشركة دون تحقيق الأفكار التي تولّدت لديّ من خبرة العمل، وأرى فيها فوائد مهنيّة وماليّة كبيرة، أو أن أعتذر عن عدم الاستمرار في الشركة.

وكان القرار وهو عدم الاستمرار بعد أن وصلت الخلافات المهنيّة إلى حدٍّ بعيدٍ، وتركت العمل في شركة سابا وشركاه.

بعد ترك الشركة كان عليّ أن أفكّر في الخطوة المقبلة، وألّا أبدّد الوقت في الحديث عن الأسباب والخلافات، وفكّرْتُ في تأسيس شركة خاصّة بي، واكتملَت المفاجأة حين تمسّك عدد من الزملاء العاملين وعددهم عشرة موظّفين ممّن كانوا يعملون معي في الشركة بالاستقالة ولحقوا بي، وبرغم أنّني طلبت منهم بكل رجاء أن يعودوا للشركة، لعدّة أسباب: أنّني لا أملك مقرّاً للعمل، ولا الأموال الّتي عن طريقها أستطيع دفع رواتب شهريّة لهم لكنّهم أصرّوا على أن يبقوا معي دون مقابل حتّى يتوافر لديّ ما أدفعه لهم.

بدأت التجربة من داخل سيّارتي، وبعدها استخدمتُ غرفة في مكتب المرحوم «عبد العزيز الشخشير»، الشخصيّة العربيّة الرائدة الّتي تحمل الآن اسمه جائزة تمُنَح للمبدعين وفاز بها مركز «مدى الكرمل» للأبحاث الاجتماعيّة التطبيقيّة – حيفا واسمها جائزة مؤسسة التعاون للإنجاز – جائزة المرحوم عبد العزيز الشخشير «سنكون يومًا ما نريد»، لتميُّز المركز في مجال إنتاج المعرفة الفكريّة حول التاريخ والواقع السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ للفلسطينيّين في مناطق الــ ٤٨.

بدأت من داخل مكتبه وحتى أتمكّن من استئجار مكتب، وكانت موظّفة التليفون ماري حايك كريمة جدّاً بعد أن تبرّعت بمصاغها وحِليها بالكامل لإنشاء مكتب فقد راهنت على الأمل.

تلك كانت البداية الصّعبة، وهو طريق طويل من الكفاح والجهد.

كانت أول عملية حصلت عليها من غرفة التّجارة الكويتيّة بدعم من الأستاذ عبد العزيز الصقر رحمه الله وكان في الوقت نفسه رئيساً لمجلس الأمّة كان خلوقاً كريماً.

هذا الرجل لا أستطيع مهما عبرّت بالكلمات أن أوفيه حقّه.

نموذج للإنسان الطيّب الّذي يقدّم كلّ ما بوسعه من أجل الغير، كان شخصيّة شديدة التواضع وفي الوقت نفسه له هيبته وشخصيّته، ويتصرّف بشكل تلقائيّ في معالجة المسائل الصّعبة كما لو كانت قراراته وضعتها لجان استشاريّة عكفت على دراسة المشكلة.

وأروي هنا للتاريخ واقعة حدثت معي تكشف عن معدن هذا الرجل وكم كان كريماً في أخلاقه ففي إحدى الأمسيات كنتُ أزوره في ديوانه الّذي كان يعقده يوم الاثنين من كلّ أسبوع، وجرت العادة أن أجلس إلى جواره من ناحية اليمين، كنت في بدايات حياتي شابّاً بسيطاً لا يملك من الدنيا الواسعة سوى اسمه وعلمه الّذي درسه في الجامعة وسنوات الخبرة في شركة سابا، كنت بدأتُ مؤسّستي الخاصّة، وفي هذا اليوم كنتُ قد قرّرتُ أن أفاتحه في أمر ما وأطلب منه المشورة والمعاونة بحكم موقعه وشخصيّته والعلاقة الّتي تربطنا.

قبل أن تشارف الأمسية على الانتهاء انتابتني حالة من التردّد وشعرت بالخجل وبعد انتهاء الأمسية اتّخذتُ قراري بالانصراف دون أن أفاتحه.

كانت لديه حاسّة عجيبة وأدرك، دون أن أنطق بكلمة واحدة، ما يدور داخلي فقال طلال: انتظر لا تمشِ وبعد أن انصرف الحاضرون سألني ماذا بك؟ فقلت له: حان الوقت أنْ أشتري بيتاً في الكويت فحتّى الآن لا أمتلك بيتاً، فقال متعجّباً حتّى الآن كيف؟ وأكملت: عندي مشكلتان، الأولى أريد قرضاً من أحد البنوك لأنّني لا أملك المال، كما أريد تسجيل البيت باسمك.

قال الأولى هيّنة، أما الثانية فصعبة... فأنا لا أملك باسمي شيئاً وكل الأملاك باسم عبد الله الصقر وإخوانه.

ثم دار حوار وسرعان ما وافق على أن يكون البيت باسمه وطلب أن أزوره في الصباح.

ذهبتُ إليه في صباح اليوم التالي، وسألني كم تحتاج من البنك؟ حدّدت له المبلغ فقال سوف أتحدّث مع رئيس البنك الوطني، وأذهب إلى مكتبه وكلّ الأمور ستكون على ما يرام.

خرجت من المكتب بعد واجب الشكر والامتنان، وفي الطّريق وأنا في اتجاه مكتبي اتّصل مدير البنك الوطني الكويتي وهو «السيد إبراهيم دبدوب» وقال: عندي تفويض من البنك بالمبلغ الّذي تريده، قلت له ٢٠٠ ألف دينار، قال لي فقط ممكن تحصل على مبلغ مليون دينار، قلت: شكر كبير ولكنّني لا أريد سوى هذا المبلغ، قال عندي كفالة من الأستاذ عبد العزيز الصقر بموجبها تحصل على المبلغ الّذي تريده.

وأكمل بعد ساعة سيكون عندك مندوب ومعه الأوراق والشيك بالمبلغ المطلوب.

وعندما بدأنا في إجراءات تسجيل البيت قبل أن يبدأ الموظف في الإجراءات استدعى عبد العزيز الصقر مدير مكتبه وطلب منه أن يجهّز وثيقة تثبت أنّ هذا البيت هو ملك طلال أبوغزاله بالكامل، شعرت من هذا التصرّف بالخجل فقال هذا حقك.

وقال في الوثيقة الّتي كتبها: إنّ هذا البيت هو حقّ طلال أبوغزاله وسدّد قيمته وله الحق المطلق في بيعه والتصرّف فيه دون الرجوع إليّ.

وتمّ تسجيل البيت باسمه.

كان البيت يقع في المنطقة الّتي بها قصر الحكم وهو مقابل قصر الأمير جابر الصباح، وكان على ربوة عالية ويطلّ على القصر بشكل يجعل مَن في البيت يمكن أن يشاهد أو يرى بعض التفاصيل داخل القصر وعندما كانت تزوره بعض الشخصيّات الرسميّة كنت أتلقّى تعليمات بضرورة الحرص في استقبال الزوّار في هذا التوقيت بحيث أدقق في الضيوف لدواعي الأمن.

المعاملة الّتي حظيت بها في الكويت تجعلني طوال حياتي أعتزّ بهذا البلد وأتذكّر في كلّ لحظة الدّعم المعنويّ والدّعم المادّي، وتعلّمت من أهل الكويت وأخلاقهم.

«لقد أكرمتني هذه الدولة، ومنحتني فرصاً ودعماً لم يُعطَ لابنها الكويتيّ».

وفي الحقيقة أنا أدين بالفضل للكويت وكما يقال «لحم كتافي من خيرها» منها انطلقتُ لدول مجلس التعاون ثمّ لكلّ العالم، ومن أفضال الكويت عليّ أيضاً مساعدتها لي لفتح مكتب في القاهرة، وفي مصر كان ممنوعاً فتح أي مكتب باسم أجنبي وبعد أن تمّ رفض الطلب اتّصل بي السفير المصري وقال لي: إنهم موافقون على فتح المكتب، وعلمت بعدها أنّ شركة العقارات التي كان يديرها أحمد الدعيج رحمه الله، تعاقدت لتقديم مساكن لذويّ الدّخل المحدود في مصر بمبلغ ٤٠٠ مليون دينار، واشترطت أن يكون مدقّق الحسابات مكتب طلال أبوغزاله وشرط أن يكون لي مكتب هناك وفعلاً فتحت المكتب وكان الاستثناء الأوّل والأخير ربمّا في مصر، وأصبح لدينا نشاطات ومشاريع كبيرة جدّاً في مصر، وفي السعودية أيضاً تمّ رفض المكتب حتّى ذهبت ضمن وفد كويتيّ وتمّت مقابلة الأمير سلمان وكان وقتها أمير الرياض وأمر بفتح المكتب.

وخلال وجودي في الكويت طيلة ثلاثين عاماً قضيت أحلى سنوات عمري تعلّمت واشتغلت وبنيت أكبر مؤسّسة في العالم وهي مجموعة طلال أبوغزاله في الملكيّة الفكريّة الأضخم في الدنيا، والفضل يعود للكويت والإنسان يجب أن يُعطي الحق لصاحبه.

الاسم العالميّ

مجموعة طلال أبوغزاله واختصارها (TAG-Org) علامة لا تخطئها العين في كل عواصم العالم فهي تضمّ مائة وواحد واربعون شركة، تعمل المجموعة من خلال مكاتبها المنتشرة في العالم وعددها خمس وثمانون مكتباً ومائة وخمسون مكتب تمثيل حول العالم.



على منصة الأمم المتحدة

مكاتب المجموعة في العواصم مثل عمّان والقاهرة هي مبان مستقلة وعلى مساحات كبيرة وتضمّ العديد من الطوابق المتكرّرة ولها واجهات عملاقة لا تخطئها العين.

تعدّ أكبر مجموعة عالميّة لشركات الخدمات المهنيّة التي تعمل في حقول المحاسبة، التّدقيق الخارجي، التدقيق الداخلي، حوكمة الشركات، الضرائب، الاستشارات

التعليميـّة، الدراسـات الاقتصـاديّة والاسـتـراتيجيّة، خدمــات الاستشــارات الإداريّة، التدريب المهنيّ والفنّي، نقل التقنيّة وإدارة المشاريع، إدارة العقارات، خدمات المستثمرين واستشارات الأعمال، الموارد البشرية وخدمات التوظيف، الحكومة الإلكترونيّة، التجارة الإلكترونية، التعليم الإلكتروني وتدقيق أمن تقنيّة المعلومات، تطوير وتصميم المواقع، الترّجمة الفورية والترجمة المهنيّة، تعريب المواقع، التخطيط الاستراتيجيّ لتقنية المعلومات والاتصالات، الخدمات الاستشاريّة لتخطيط موارد المشاريع، التدريب على مهارات تقنيّة المعلومات والإنترنت وامتحاناتها، وكالة أنباء الملكيّة الفكريّة، تقييم أعمال وموجودات الملكيّة الفكريّة وخدمات الأعمال التجاريّة، تسجيل وحماية الملكيّة الفكريّة، تجديدات الملكيّة الفكريّة، حماية وإدارة حقوق الملكيّة، الخدمات القانونيّة «استشارات ومحاماة» والاكتتابات العامة.

تأسّست مجموعة طلال أبوغزاله رسمياً عام ١٩٧٢، لكن قبل ذلك بسنوات كانت الفكرة وبدء العمل.

يقول طلال أبوغزاله عن قصته في تأسيس المجموعة: كنت كلاجئ فلسطينيّ أفكّر كيف أخدم قضيّتي، هذه الرغبة الّتي تحوّلت إلى واقع ملموس على الأرض؟ كنتُ أريد أن أثبت مَن نحن أبناء فلسطين والعرب، وأسير في الطريق الطويل نحو مؤسسة فلسطينيّة عالميّة.

هذا التحدّي الّذي كان يملأ كلّ كياني كيف أحققه؟

الخطوة الأولى حسب تخطيطي كانت في أن أتفوّق علمياً، ثمّ أتقن بكلّ ما تعني الكلمة مهنتي وعملي، حتّى أضع قدمي فوق البساط الذي يمشي عليه الكبار في مجال تجارة الخدمات.

قبل أيّ شيء النجاح، من الصّعب جدّاً أنْ يتحقّق بجهد شخص، سواء كان رئيساً أو مالكاً للشركة أو مسؤولاً عنها وإنمّا النجاح يكون بمساهمة كلّ فريق العمل وأهميّة شعور العاملين بالشركة أو المؤسّسة بالانتماء الكبير للمكان والشركة.

عوامل النجاح من خلال تجربتي الطويلة مع مجموعة طلال أبوغزاله من أهمّ العناصر فيها روح الفريق، وارتباط العاملين بالشركة والحرص عليها.

أفتخر دوماً بأسرة المجموعة في كلّ المكاتب والعواصم وأرى في طبيعة العلاقة البعد الإنسانيّ والثّقة في الانتماء للمكان، ودوماً كان أبناء المجموعة مدعاة للفخر، تربطني بهم أواصر الزمالة والودّ بعيداً عن العلاقة الّتي تحكم الصلة بين رئيس العمل والعاملين، وأحرص قدر المستطاع على التنقل بين المكاتب في العواصم المختلفة وقضاء معظم الوقت داخل مقرّات المجموعة، والتواصل المباشر معهم والتّعرّف على كلّ ما يمكن أن يسهّل من مهمّة العمل لمصلحة المجموعة وفريق العمل وهي علاقة صحيّة لا بديل عنها، لأنّ التواصل المباشر يختصر المسافات.

وتحضرني حكمة هنري روس رجل الأعمال الأمريكي، الّذي كان يملك شركة جنرال موتورز وفيها يقول «عندما أقوم ببناء فريق فإنّي أبحث دائماً عن أناس يحبّون الفوز، وإذا لم أعثر على أيّ منهم فإنّني أبحث عن أناس يكرهون الهزيمة».

في الكويت كانت فترة التّكوين، وفي زمن قياسيّ كان قد وصل عدد مكاتب الشركة إلى ثلاثين مكتباً في العالم، وحتّى جاءت الانطلاقة الكبرى نحو العالم، وكانت من الأردن بعد الانتقال إلى هناك عقب الغزو العراقي للكويت في عام ١٩٩٠ حيث بدأت التوسّعات الكبيرة ووصلت مكاتب المجموعة إلى خمسة وثمانين مكتباً.

رحلة طويلة من الصبر والعمل، الخطوة الأولى كانت الأصعب وهذا وضع طبيعيّ، فمشوار الألف ميل، يبدأ بخطوة.

بدأت المجموعة بمكتب لتدقيق الحسابات باسم شركة طلال أبوغزاله وشركاه الدوليّة وسرعان ما تحوّل إلى صرح عالميّ يضمّ مؤسّسات متنوّعة في شتّى المجالات المرتبطة بالمحاسبة والتدقيق والملكيّة الفكريّة والاستشارات وفنون الترجمة...

تأسيس مؤسسة طلال أبوغزاله في الكويت له قصّة جميلة. كنتُ في مؤتمر عام ١٩٦٥ في سان فرانسيسكو، وخلال المؤتمر كان الحديث عن الملكيّة الفكريّة في هذا الوقت لم يكن أحد في الوطن العربي مهتمّاً بهذا الموضوع أو يفكر فيه، من خلال المؤتمر أدركتُ الأهميّة البالغة للملكيّة الفكريّة.

أُسّست المجموعة من الكويت، وانطلقت منها، وأسست شركة لتدقيق الحسابات الدوليّة وشركة أخرى للملكيّة الفكريّة وشركة أخرى للاستشارات، وعندما أردت تأسيس الشركة سافرت إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة، باعتبارها أهمّ دولة على مستوى العالم في هذا المجال، وتوجّهت إلى واشنطن، وأنعمَ الله عليّ بأن كان سفير الكويت في أمريكا الشيخ سالم صباح السالم رحمة الله عليه، وزرته وكانت تربطني به وبأسرة آل صباح صداقة أعتزّ بها حتى اليوم وكنت تربّيت في بيتهم وفي كنف الشيخ صباح السالم. قال لي الشيخ سالم الصباح رحمه الله: ماذا تعمل في واشنطن؟ فقلت له أريد أن أؤسّس شركة للملكيّة الفكريّة. فردّ قائلاً: كيف؟ فقلت: معي قائمة بأسماء الشركات الّتي أرغب في زيارتها وأعرض خدماتي عليها، وأستطيع أن أقوم بحماية العلامات التجاريّة في الكويت والدول العربية. فطلب منّي قائمة الشركات وأعطاها لسكرتيره لدعوتهم للعشاء في اليوم التالي. وهذا الموقف لا يمكن أن تتخيّله، هذا نموذج للشعب الكويتيّ الكريم الذي تعلّمت منه الخلق قبل أن أتعلّم منه الخبرة والعلم، ولبّت الشركات الأمريكية دعوة العشاء، لأنّها من السفارة الكويتيّة، وأنا شخصيّاً لو كنت أريد أن آخذ مواعيد ممكن أن أستغرق عاماً كاملاً في ذلك، وقال للشركات الأمريكيّة: إنّ «طلال أبوغزاله ابننا وهذه المؤسسة مؤسستنا، وأنا أشهد أنّكم تستطيعون أن تثقوا به» وكان هذا الكلام يكفيني وتعاملت مع الشركات بفضل دعوة العشاء من الشيخ سالم صباح السالم رحمة الله عليه ليدعمني.

أعطاني الدعم المعنوي يومها شعرت بالإحراج قال: نعمل لخدمة الكويت كونك مؤسسة كويتيّة... لو أكتب مجلّدات لن أوفيه حقّه.

عندما أسّسْتُ الشركة حدثت معي بعض المواقف التي ساعدتني في بناء العمل. وكان لي منافسون من شركات أجنبيّة لم يُرِحها أن تكون هناك شركة عربيّة وكويتيّة تنافسها، فشنّوا عليّ حرباً شرِسة واتّهموني بشتّى الاتهامات، منها عميل للمخابرات الأمريكيّة، أو عميل للعدو، أو عميل لمنظمة التحرير الفلسطينيّة، وكلّها متناقضة، والهدف منها تشويه الصورة والسمعة والانتقام مني بسبب النجاح الّذي حققته، وذهبت إلى الأستاذ عبد العزيز الصقر وقلت له: أنا أواجه مشكلة ومحتار ماذا أفعل؟ أنا أسّست الشركة وتعرّضت لحملة كبيرة ضدي. فردّ قائلاً: «هل أنت متضايق لأنّ النّاس لا تحبّك؟» قلت له: طبعاً متضايق. فقال: كم نسبة النّاس الذين لا يحبّونك؟ فقلت له: ليس لديّ نسبة

معينة. فقال «إذا أردتَ ألّا يهاجمك الناس اجلس في بيتك، فما دمت أنت تعمل وتنجح لابدّ أن يكون لك أعداء، ولكن المهم أن تسير في الاتّجاه الصحيح ولا تخطئ فكلّما كَثُرَ أعداؤك لا تهتمّ ما دمت تسير على الخطّ المستقيم، وهذا الهجوم يفيدك، وادعِ لربّك أن يزيدوا في هجومهم ما دمت على الطريق الصحيح، لأنّ هذا في مصلحتك». وخرجت من مكتبه وأنا مرتاح نفسيّاً من الحديث والنصائح ومن الحكم التي تعلّمتها أن هجوم عدوّك ينفع لأنّه يجعلك متيقّظاً دائماً، أمّا هجوم صديقك فلا ينفع لأنّه سيغفر لك ويمنعك أن تفشل وتخطئ وتسيئ.

وهنا قد يكون مفيداً في مثل هذه المواقف أن يكون هناك حديث مع المقرّبين والبحث معهم عن جذور المشكلة لأنّ ذلك يساعدك كثيراً على حلّ تلك المشكلة.

في قطر أيضاً واجهتُ مشكلة من نوع آخر بعد أن تمّ استحداث قانون جديد هناك ينصّ على أنّ المؤسسات العالميّة لها وضع خاص في المعاملة والمؤسّسات غير العالميّة يتمّ تطبيق نظام مختلف عليها.

وكانت المشكلة هي: هل نحن مجموعة طلال أبوغزاله مؤسّسة عالميّة؟ نتمتّع بالمزايا الممنوحة للشّركات العالميّة حيثُ تقدّم أحد المنافسين إلى الحكومة القطريّة وقال: إنّ مؤسّستنا ليست مؤسّسة عالميّة، هو قال ذلك بدافع الغيرة، وكان يتوجّب علينا أن نثبت أنّنا مؤسّسة عالميّة بالمعايير الدوليّة المُتَعارف عليها.

كان عدد فروع المجموعة وقتها واحد وسبعين فرعاً، كما نعتزّ بشهادة منتدى الشّركات العابرة للقارّات في المحاسبة الّتي تؤكّد فيها أنّ المجموعة واحدة من العشرين الكبار في العالم وعضو بها، تحت أيّ معيار نحن مؤسسة عالمية وأثبتنا ذلك، وتمّ تصنيفنا كمؤسّسة عالميّة في قطر.

يُرجِعُ أبوغزاله جزءاً من نجاحه إلى هيكل المجموعة غير الاعتياديّ إذ يقول، خلافاً للعديد من شركات المحاسبة والقانون الكبيرة في الغرب، إنّها ليست شراكة تقليديّة، إنّها مملوكة على شكل من أشكال الثقة يتمتّع فيها الشركاء بحصّة من الأرباح دون امتلاك أية حصّة في أسهمها، ممّا يسهّل استبدال كبار المديرين عند الضرورة، إضافة إلى التمكّن من التّخطيط بمرونة.

وهذا ساعد على التوسّع في البلدان العربيّة وغيرها من البلدان الّتي تفرض قيوداً على ملكيّة المستثمرين الأجانب. ونظراً لأنّ المجموعة لا تملك نيّة المساهمة التقليديّة، فإنّها كانت قادرة على التّعامل مع مثل هذه القيود والشروط بسهولة نسبيّاً.

المجموعة تطبّق ثقافة عمل صارمة وهذا أمر نادر الحدوث في كثير من بلدان المنطقة. فهي تضمّ أكثر من ثلاثة آلاف موظّف يجب عليهم ارتداء الملابس الدّاكنة وربطات العنق والقمصان البيضاء أو الرمادي أو الأزرق الفاتح ولا يسمح بارتداء الملابس الّتي تخالف ذلك. كما أنها تفرض تطبيق أسلوب ونمط المؤسّسة عند كتابة المذكّرات بحيث تستطيع من الوهلة الأولى أن تكتشف أنّ هذا الخطاب أو المطبوع هو للمجموعة.

في المؤسسة لدينا التزام وتعاهُد بعدم التطرّق للأوضاع السياسيّة، ممنوع الكلام في السياسة وهذا الأمر يتمّ النص عليه في شروط عقود التّوظيف ولا يجوز للموظف أن يكون له رأي سياسيّ داخل المجموعة.

نؤمن بأنّنا مؤسّسة مهنيّة تحترم الدّول الّتي تعمل بها وتلتزم بمعايير العمل ولها رسالة خدميّة مهنيّة.

أؤمن دائماً بأنّ أيّ نجاح يجب أن يكون من خلال بناء المؤسّسات، ولا أصرف وقتاً بإدارة المؤسّسات، أقول للشاب أريدك أن تعمل لي ماكينة تصنع العمل ولا تعمل شغلاً، كلّ شيء من طريقة اللبس وألوانه والكتابة والحرف المستعمل، هناك تعليمات لكلّ شيء في سياساتنا الإداريّة، وهناك مائة مدير تنفيذيّ بمثابة شركاء موزّعين في العالم كلّ واحد لديه مهام، هو حرّ فيها ولا يرجع لي، ولديه توكيل عام وتوقيع منفرد في البنوك، لكن في نفس الوقت هناك أنظمة رقابيّة على الجميع وهناك دوائر للرقابة الماليّة والإنتاجيّة والجودة كلّها تراقب بتفويض مطلق.

كلّ لقاءاتنا الكترونيّة فلا يمكن أن أدير شبكة تمتدّ من أفغانستان إلى مونتريال إلى الصين إلى أيّ بلد في الدنيا بالاجتماع الشخصيّ، حتّى زميلي في المكتب أراسله الكترونيّاً، وعندنا سياسة أنّ كلّ شيء لابدّ أن يكون مكتوباً وقد تعلّمت هذا وعادة أنا أتعلّم من كلّ شخص أقابله.

كنت في الابتدائي وكان عندنا ناظر اسمه زكي النقّاش فكان كلّ يوم يقف ويقول لنا ما كُتب قرّ وما حُفظ فرّ، ولذلك دائماً أكتب أيّ شيء وأحياناً وأنا نائم ليلاً أكتب بالورقة والقلم كلّ ما أريد أن أتذكّره.

الحياة تحكمها المعايير والنظرة بعمق للأشياء فعلى سبيل المثال، فقد سألني ابني ماذا يجب أن يدرس أبناؤه؟! فقلت دع أحفادي يتعلّمون اللغة الصينية، لماذا؟ لما تمثّله الصين الآن من مكانة وأهميّة وبدأت بنفسي تعلّم اللغة الصينية.

كما بادرت بإنشاء مراكز لتعليم اللّغة العربيّة في الصين. كان لا بدّ من اجتذاب الصينيّين إلى الثقافة العربيّة، وثقافة الصيني هي ثقافة واعية. هم حذرون جدّاً ولا يأخذون قراراً بطريقة متسرّعة. وتجربتي معهم استمرّت عشر سنوات على الأقل وهم يفحصون دعوتنا لأن يكون في الأردن معهد كونفوشيوس، لتعليم اللغة الصينية حتّى قرروا في نهاية الأمر أن تكون مؤسّسة طلال أبوغزاله أوّل مؤسّسة خاصّة في الدنيا تقيم شراكة مع معهد كونفوشيوس وهي مؤسسة حكوميّة فليس هنالك أيّ نموذج مماثل لنا كقطاع خاص يتعاون مع كونفوشيوس في شراكة وتنسيق لتعليم اللغة الصينيّة. ولأن الثقة زادت فقد تمكّنت مؤسسة طلال أبوغزاله في كونفوشيوس من التعاون في مجال التأشيرات إلى الصين.

كما أنّ «أبوغزاله للملكيّة الفكريّة» هي أوّل من فتح مكتباً في الصين في موضوع الملكيّة الفكريّة في شنغهاي وبكين. هذا يعود إلى دراستي للتاريخ ومعاينته منذ أربعين عاماً حتى أصل أخيراً لعقد شراكة مع الصين. ومع ذلك كان الصينيون يحبّون أن يطلقوا على أنفسهم اسم دولة نامية... ولا أدري، فإن كانت هذه الدّولة نامية، فماذا نقول عن دولنا نحن؟ حيث شنغهاي التي تقابل نيويورك، والمنتجات الصينيّة التي تغزو العالم.

من خلال دراستنا للتاريخ والجغرافيا وجدنا إضافةً للصين أنّ عالماً لم نكتشفه بعد هذا ينطبق على الهند، فكنّا نحن أوّل مَن فتح مكتباً في الهند في هذا المجال. ما هو جميل يأتي من الشرق، عبارة قرأتها في أحد الأماكن الأثريّة في الصين.

لقد قيل إنّ تسعة أعشار العبقريّة تتكوّن من العمل الدؤوب. كما قيل إنّ الفرق بين المدير الجيّد والقائد الجيّد أنّ المدير الجيّد هو الذي يفعل الأشياء بالطّرق

الصحيحة أما القائد الجيد فهو من يفعل الشيء الصحيح. ومن هنا أقول بالجهد والعمل والالتزام بالقواعد الخلقيّة يمكن أن نتلمّس الطريق نحو النجاح.

إنّنا في المجموعة والتي نعمل على تحويلها الى مؤسّسة معرفية لتتناسب مهامنا وبرامجنا وأنشطتنا المهنيّة مع روح العصر، كنّا السبّاقين كمؤسسة مهنيّة في إصدار المعاجم في مجالات متعدّدة كالمحاسبة، والأعمال، والملكيّة الفكريّة وبراءات الاختراع، والقانون، وتقنيّة المعلومات ونعمل على تطوير وتحديث هذه الإصدارات باستمرار، كما تحمّلت مجموعتنا ومن واقع مسؤوليّتها المهنيّة إصدار الترجمة العربيّة الوحيدة والمُعتمَدة من معايير المحاسبة الدولية ومعايير التدقيق الدولية.

كما أنجزت المجموعة جهاز كمبيوتر عربيّاً محمولاً وغير ربحيّ بأعلى المواصفات للإسهام في محو أميّة المعلوماتيّة في المنطقة العربية و«ملتقى طلال أبوغزاله المعرفي» وهو عبارة عن منتدى تنظّم فيه كلّ الأنشطة الثقافيّة والمعرفيّة وتلك المتعلّقة بالاقتصاد.

ومجتمع طلال أبوغزاله للمعرفة الذي يضمّ نحو ثلاثين ألف طالب جامعيّ وتتوفّر فيه كافّة حاجات الطلبة والشباب التقنيّة واللغويّة والمعرفيّة.

ومنذ عقد من الزمن تعاقدت مجموعتنا مع هيئة الامتحانات الدولية – جامعة كامبردج العالميّة المعروفة، لإطلاق ومنح شهادة لتقنية المعلومات باللغة العربية وتُقَدّم هذه الشهادة في أربعمائة وخمسين مركزاً تابعاً للمجموعة في الدول العربية.

إنّ تركيزنا على المعرفة باعتبارها الثروة الحقيقية، يسهم في توسيع الخيارات والفرص المتاحة لتقدّم الإنسان.

ويقول أبوغزاله سألني كثيرون عن سبب انخراطي في مجال التعليم العالي. وأودّ أن أبيّن هنا أنّه بعد أن قُدِّمَت خدمات مهنيّة متميزة في جميع أنحاء العالم العربيّ خلال أربعة عقود، وبعد أن أجريت المقابلات وعملت على تعيين الآلاف من الموظّفين على مرّ السنين، توصّلتُ إلى نتيجة حاسمة مفادها أنّنا بأمسّ الحاجة إلى تحسين نوعيّة الموارد البشرية التي يحتاجها اقتصادنا العربيّ.

مجموعة طلال أبوغزاله لا تختلف كثيراً عن العديد من الشركات المنافسة، فإنّ المؤسّسة لا تكشف عن إيراداتها أو أرباحها، وعليه يصبح الحكم على مواطن القوّة والضعف في مركزها الماليّ صعباً جدّاً ويقول أبوغزاله: لقد نمَت العائدات بنسبة لا تقل عن ١٠٪ سنوياً في السنوات الأخيرة، وأنّه يتطلّع بكلّ الأمل إلى التوسّع في الخدمات وتحقيق نموّ بنسبة تتراوح بين ٢٠-٢٥ ٪.

دورة العمل في المؤسّسة في معظمها تتم من خلال الإنترنت كما أبدت المؤسسة اهتماماً خاصّاً بضرورة مشاركة المرأة في المملكة العربية السعوديّة في المؤسّسة، عن طريق إنجاز العمل بسهولة من المنزل علماً بأنّه من الصعب جدّاً بالنسبة لهنّ العمل في المكاتب التي يعمل بها الرجال كما وفرّت المؤسسة للمرأة في الأراضي الفلسطينية المحتلة أيضاً فرص العمل من خلال الإنترنت.

وعندما يتحدّث البعض عن أبوغزاله بأنّه شخصية محظوظة عندما أطلق مؤسّسته، حيث تصادف ذلك مع الطفرة النفطيّة العربيّة في فترة لم يدخل فيها معظم منافسيه الغربيين منطقة الخليج في هذا الوقت، هنا يبدي اعتراضه على هذه النظرة الّتي لا تراعي الجهد الكبير الّذي بذله في تأسيس وتطوير المجموعة، كما أنّه يرفض فكرة أنّه لا يمكن تطوير مؤسّسات متعدّدة الأغراض مشابهة في المنطقة اليوم ويقول: لا يزال الباب مفتوحاً ويقبل مؤسّسات جديدة.

البعض ينطلق من اعتقاد بأنّ ظروف العمل من حيث المنافسة وسوق العمل كانت أسهل في ذلك الوقت وهذا غير صحيح أيضاً ويؤكد لقد كانت الأوقات دائماً صعبة في بعض المسائل وما قمت به يمكن تكراره مرة أخرى إذا كان الإنسان الراغب في ذلك يملك الدافع على العمل الشاق والقدرة على تحمّل المعاناة.

وفي تقديره أن الشركات العائليّة قد تكون أكثر حيويّةً ونشاطاً من الشركات العامة بالإضافة إلى قدرتها على التكيّف مع احتياجات التغيير والتطوير والتنمية.

ففي العالم العربي -كما يقول- أعلى نسب لشركات الأعمال العائليّة مقارنة مع إجمالي عدد شركات الأعمال العائلية في العالم، لأنّ مؤسّسي شركات الأعمال

العائليّة غالباً ما يسيطرون بشكل كامل على أعمالهم، وأعمالهم تتحكّم فيهم، وقد تصبح بذور نجاحهم هي بذور الفشل عندما يسلمّون المقاليد إلى من يخلفهم.

فالعمل والعائلة كيانان مختلفان كلّ الاختلاف، وفي معظم الحالات هناك تداخل بينهما، وأفضل طريقة لتكون عادلاً ومسؤولاً تجاه كلّ مِن عائلتك وعملك هو أن تحافظ على التمييز بين الاثنين قدر المستطاع، ولهذا من الضروري أن تدير عملك باعتباره مؤسّسة أعمال وأن تدير شؤون عائلتك باعتبارها أسرة، وبلا شك ستكون أنت الرّابح في الحالتين.

مع الأهميّة في أنّ الحاجة دائماً ترمي إلى ضرورة الاستعانة أحياناً بمستشارين مستقلّين بإمكانهم إدخال رؤية جديدة إلى الحقائق الفاعلة المؤثّرة لإدارة الأعمال في الشركات العائلية، مشيراً إلى أنّ على المستشار أن يتمتّع بقدرات تحليليّة وبشموليّة المنهج والقدرة على إدارة المعرفة والنّزاهة، تكون دون شكّ مغايرة للرؤية العريضة الّتي تتعامل بها العائلة في الشركة وهناك مؤشّرات تحليليّة ترصد أن١٠٪ فقط من أعمال العائلات صمدت في وجه اختبار الزمن.

ووفقاً لما نشرته مجلّة فوربس الشرق الأوسط لقائمة تضمّ أكثر مائة شركة تأثيراً في العالم العربي، وأدرجت المجلة مجموعة طلال أبوغزاله في القائمة ومن دواعي الفخر أنّها جاءت المجموعة المهنيّة الوحيدة في هذه القائمة.

وأوضحت المجلّة في قواعد الاختيار أنّ القائمة احتوت على أكثر من مائة شركة تأثيراً في العالم العربيّ سواء أكانت عربيّة أو تعود ملكيّتها لجنسيّات أجنبيّة، لكنّها استطاعت أن تكون جزءاً من المشهد الاقتصاديّ في المنطقة بسبب قوّتها وحجمها وتأثيرها في المجتمعات العربيّة، من خلال خلق فرص عمل متنوّعة، وتقديم برامج تنمية للمجتمع المحلّي وكذلك من خلال برامج المسؤولية الاجتماعية.

وكشفت المجلّة عن أنّ الشركات العائليّة والقابضة تشكّل في الوطن العربيّ وزناً مهمّاً في اقتصاد المنطقة، من خلال انتشارها الواسع، وتعدّد القطّاعات التي تعمل فيها.

يقول طـلال أبوغـزاله عن طموحه كان لديّ طموح كبير في أن أصبح أكبر شركة في الدنيا، الطموح مهمّ جدّاً لكن هل يمكن أن يتحقق النّجاح بالطموح وحده؟ لا يمكن وأي إنسان يعرف هذه الإجابة، الّذي يحقّق النجاح مع الطموح التّخطيط والإرادة والتخصُّص، وبالفعل أصبحنا أكبر شركة للترّجمة في العالم وفي مجال آخر هو الملكيّة الفكريّة أصبحنا أكبر شركة عالميّة في الملكيّة الفكريّة.

لقد رَكِبْنا موجة التغيير على مَرّ العقود، واستطعنا التكيُّف مع التطورات التكنولوجيّة وأحدثنا تغييرات جذريّة طوال مسيرتنا المهنيّة حتّى أصبح لدينا مائة وواحد وأربعون شركة متخصّصة تقدّم مئتين وخمسين خدمة في المجالات المهنيّة والتعليميّة والاستشاريّة وبناء القدرات، ثمّ قمنا بتوسيع رقعة تغطيتنا الجغرافيّة، من خلال خمسة وثمانين مكتباً يعمل فيها المواطنون والوافدون في كلّ بلد ومائة وخمسين ممثّلاً وطنيّاً في جميع أنحاء العالم، أنشَأنا أصولنا الخاصّة في مجال الملكيّة الفكريّة: تملك أكثر من مائة اختراع في مجال حلول تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، تأليف ونشر ستة قواميس في مجالات متنوّعة، خمس وسبعون قاعدة بيانات تدعم خدماتنا بموارد لا نظير لها.

نحن نعتبر أنّ قصص الإخفاق ليست القاضية، وقصص النجاح ليست النهاية، كلاهما جسر يقود للآخر، نؤمن بالابتكار والتّنافُس.

ستٌّ وثلاثون مرتبة أولى احتلّتها مجموعتنا في سعينا المتواصل نحو الإبداع والابتكار، يدفعنا منافسونا للسّعي الدؤوب نحو التميّز وينبّهوننا أنّه يجب علينا ألّا نرتكب الأخطاء، مما يبقينا في حالة من التأهب الإنتاجي.

نحن مجموعة ممتثلة لكلّ القوانين، لم يصدر بحقّنا أيّ اتّهام قضائيّ منذ انطلاق المجموعة عام ١٩٧٢، ما زلنا نعمل على تعزيز اسمنا التجاريّ العالميّ، نحن نبني حاجزاً بين العائلة والشركة العائليّة، جميع مكاتبنا وعملياتنا وخدماتنا يديرها مديرون تنفيذيون ومهنيّون وخبراء على أعلى المستويات من غير أفراد العائلة، نحن مزودو خدمات الإنترنت لأنفسنا نحن نمتلك ونسيطر على خطّ الإنترنت الآمن ذي السرعة العالية الخاصّ بنا. نمتلك أوّل سحابة حاسوبيّة للقطّاع الخاصّ في العالم العربي.

لقد وفّرتْ مجموعتنا بنجاح تعليماً تقليديّاً من خلال كليّة طلال أبوغزاله للدراسات العليا في إدارة الأعمال – الأردن، والتي تُعتَبَرَ الكليّة الوحيدة في العالم العربيّ التي تمّ اعتماد برنامج الماجستير في إدارة الأعمال لديها من قبل (FIBAA).

كما أنّنا أطلقنا مؤخّراً كلية طلال أبوغزاله الجامعية للأعمال في البحرين.

لديّ من الأحفاد تسعة، كلّهم نمَوا وترعرعوا مع الإنترنت، وتعرّضوا إلى جميع جوانبها المعقدّة وأصبح لديهم ما يمكن القول عنه: فَهْم كامل عنها. أمّا خبرتهم فتزداد لتضاهي خبرة أيّ طالب ولد في عصر المعلومات. وفي المستقبل القريب، سوف ينصهر العالمان الافتراضيّ والواقعيّ في بوتقة واحدة فيصبحان صنوان لا يمكن التميّيز بينهما بحال من الأحوال. بل سيستعصي عدم الربط بينهما نظراً للعلاقات المتبادلة الوثيقة بينهما. ومن هنا، ينبغي علينا أن نُقرّ جميعاً بالعلاقة الرمزيّة التي تزداد يوماً بعد يوم بين التكنولوجيا والتّعليم.

إنّ جامعة طلال أبوغزاله تجسّد هذا النّظام الذي يُلبّي هذه الحاجة. كما تجسّد سعينا الدؤوب لتحقيق ديمقراطيّة التعليم وتعزيز المواطنة العالميّة وتمكين المواطنين الذين تمّ حرمانهم نتيجة للثورة التكنولوجيّة. وتنحصر مهمّتنا في وضع برامج تعليميّة معتمدة في متناول الجّميع في كلّ مكان. وبدلاً من منافسة المؤسّسات، فإنّنا نمثّل ائتلافاً عالميّاً للتّعليم، يتعاون مع صفوة الجامعات المنتقاة في جميع أنحاء العالم لتقديم برامجهم عبر الانترنت من أجل تحقيق هذه الرسالة.

وكانت أوّل جامعة تنضمّ إلى ركب تحالفنا هي جامعة كانيسيوس، وهي جامعة خاصّة ورائدة في غرب نيويورك. وإنّني أرغب من خلال هذه الجامعة بتغيير سلوكيّات الناس نحو تبنّي التعليم الرقميّ- لنبيّن لهم أنّه طريق المستقبل. فالتّعليم الرقميّ المنبثق عن المؤسسات الدوليّة يفرض على الأفراد فهم استقلاليّتهم وفهم الطبيعة المتشابكة للعالم الحديث. كما أنّه يسمح بإتاحة وصول التعليم رفيع المستوى لمختلف الثقافات ومختلف المتعلّمين الذين لا يمكنهم تحمّل نفقات السفر.

إنّني أُؤمن بأنّ التّعليم رفيع المستوى هو حق من حقوق الإنسان، وإنّني أرغب بوضع القدرة على الاختيار والمساهمة بين أيدي الطلّاب. حيث تعمل جامعة

طلال أبوغزاله على تمكين المجتمعات التحويليّة من تبنّي مفاهيم جديدة من البداية. إنّنا نشجّع تعليماً مميّزاً ومنخفض التّكلفة للجميع وليس تعليماً للجميع فقط.

أنتمي إلى بيئة الأعمال. ولا أستند في عملي إلى الشهرة. إنّنا نؤسّس مشاريع مجدية ودائمة. وعليه فإنّنا بحاجة إلى التحوّل من التعليم المجّاني إلى التّعليم المُمَيّز منخفض التكلفة. كما أنّ تقديم تعليم غير مُعترَف به وغير مُعتَمَد لن يساعد أحفادنا في حياتهم.

أعلنت الأمَم المتّحدة عام ٢٠١١، أنّ الوصول إلى الإنترنت هو حق أساسيّ من حقوق الإنسان. وبصفتي رئيساً للائتلاف العالميّ لتكنولوجيا المعلومات والاتّصالات والتنمية (GAID)، فقد ناضلْتُ كثيراً ليرى هذا الإعلان الذي ساهمت في صياغته النور. إنّني أؤمن أنّه من خلال استخدام هذا المعيار يمكننا إنجاز الأمر ذاته فيما يخصّ التّعليم العالي. فالقدرة على إتاحة التّعليم لكلّ شخص في هذا العالم قائمة فعلاً، كما تتوفّر التكنولوجيا اللازمة لذلك، ويجب على الإنسان أن يحقّق هذه الإمكانات. وعليه فإننا بحاجة كذلك إلى إعلان حقوق إنسان بعنوان «التّعليم المميّز حقّ للجميع».

إنّه ليس الإنترنت فحسب، ولا تكنولوجيا المعلومات أو وسائل الإعلام الاجتماعيّ التي تجعل من هذه الجامعة أمراً ممكناً -بل إنّه تراكُم الخبرات الإنسانيّة. وقد كرّست مجموعتنا الموارد اللازمة لتوفير تعليم راقٍ وغرس الاعتزاز والكبرياء في التعلّم.

لقد تولّيت مناصب عدّة، سعيت من خلالها إلى معالجة القضايا التعليميّة عبر مسيرتي المهنيّة. وأنا الآن عضو في لجنة خبراء منظّمة التجارة العالميّة لبحث وتحليل التّحديات التي تواجه التجارة العالمية، ورئيس لمنتدى التحديّات العالميّة في جنيف، ومن هنا أقول إنَّ إصلاح قطّاع التعليم قد غدا موضوعاً مثيراً للنّقاش خاصّة عند استشراف مستقبل الأعمال والتجارة.

وقصة أن تكون لدينا أكبر شركة في العالم في مجال الترجمة جاءت لكوننا أكبر شركة في مجال الملكيّة الفكريّة وكنّا نحتاج ترجمة براءات الاختراع والعلامات التجاريّة وهي قد تصل إلى أكثر من ألف صفحة وبدلاً من الاستعانة بمكاتب ترجمة أسّسنا شركة وباتت الأكبر في العالم.

نحن نترجم لجميع منظّمات الأمم المتّحدة والمنظّمات العالميّة وللحكومات العربيّة ونختصّ بالترجمات المهنيّة والتقنيّة.

تقنيّة المعلومات، كيف بدأت؟ تلك قصّة تُحكى، كيف أنافس الولايات المتّحدة الأمريكيّة وأنا في سوق صغير واختراعاتي صغيرة لا يمكن أن تدخل في منافسة مع السوق الأمريكيّ الضخم. ولهذا قرّرنا أن نحوّل المؤسّسة إلى مؤسّسة تعمل الكترونيّاً في مكاتب الملكيّة الفكريّة والمحاماة وفي مجموعتنا عدد كبير من المحامين العاملين في مكاتبنا.

وقلت: لماذا لا نحوّل نشاطنا إلى الكترونيّ؟

والمحامون بطبيعة الحال ليس لديهم اهتمام بتقنيّة المعلومات، هذا من مهام أشخاص آخرين.

وأوّل شخص قرّرت تعيينه مديراً للملكيّة الفكريّة بالمجموعة كان خبيراً بتقنيّة المعلومات، وهو متخصّص في هذا المجال، وله قصّة من المهمّ أن أرويها فهي تكشف عن زوايا عديدة، عندما طلبته حضر وعرضت عليه منصب مدير شركة الملكيّة الفكريّة، كان الأمر بالنسبة له مفاجأة غير متوقّعة، ومن خلال ردّه على العرض قال: أنا لست خبيراً في الملكيّة الفكريّة حتّى أكون الشخص المناسب لهذا الموقع، كما تعلم أنا خبير في تقنيّة المعلومات.

هذا الحوار يكشف عن طريقة التّعامل داخل المجموعة وعن شكل الحوار بين رئيس مجلس الإدارة والعاملين بها، في علاقة العمل نتحاور ونتناقش بهدف الوصول إلى قرارات يقبل بها الجميع وعندما نتّفق ونقرّ القرارات تصبح نهائيّة، والمبدأ المهمّ الّذي نلتزم به جميعاً هو حريّة تصارع الآراء والأفكار دون تردّد وبعيداً عن التسلسل القياديّ في الوظائف. كان يتوجّب عليّ أن أقدّم له ما هي مبرّراتي وراء اختياره لهذا المنصب.

فقلت له: لأجل هذا أريدك كخبير تقنيّة معلومات وليس كخبير ملكيّة فكريّة لأنّ كلّ الدنيا تشتغل بطريقة وأنا إذا أردت أن أتفوّق فيجب أن أعمل بطريقة جديدة.

كانت الفكرة في أن نقدّم خدمة الملكيّة الفكريّة بتقنيّات عالية، وأصبح العميل الّذي يقيم في شيكاغو على سبيل المثال كنقطة بعيدة لا يحتاج أن يكتب لي رسالة أو أن يرسل رسالة بالبريد الالكتروني بل يحتفظ بخاصيّة الدّخول إلى ملفّه ويكتب ملاحظاته مباشرة وكلّ ما يريده هذا لم يكن متاحاً في أيّة منظّمة في الدنيا غيرنا في مجموعة طلال أبوغزاله، ولم تكن هناك شركة قد فكّرت في أن تتعامل ويكون نظام العمل بها من خلال تقنيّة المعلومات في مجال خدمات الملكيّة الفكريّة غيرنا.

وأصبحنا في زمن قياسيّ في الصّدارة، بل نتولّى تسجيل العلامات التجاريّة للشّركات المنافسة، هم يأتون ويطلبون منّا هذه الخدمة.

جميع العاملين في المكاتب المنتشرة حول العالم للمجموعة من أبناء البلد من سياسة المجموعة في التّوظيف الاعتماد الكامل على أبناء البلد مادام هناك قاعدة من الكفاءات تتناسب مع احتياجات العمل، فمثلاً جميع الموظفين في مكتب الصين من الصينيين، وفي مكتب القاهرة بمصر جميع الموظفين مصريون وهذا الأمر مُتّبَع في لبنان والعراق وتركيا وفي كابل وغيرها من البلدان.

هذه الانطلاقة الّتي شهدتها الدّول العربيّة والّتي شهدت حجم توسّعات كبيرة في المؤسّسة واكبتها انطلاقة أخرى إلى المنظّمات الدوليّة.

كنت قد بدأت مع المنظّمات الدوليّة في مهنة المحاسبة، ولكن الانطلاقة مع المنظّمة الدوليّة للأمم المتّحدة وبصفتي الشّخصية تمّ انتخابي لعدّة مناصب في بداية عهد كوفي أنان الأمين العام السابق للأمم المتحدة.

تعلّمتُ من طبيب ذهبت إليه لأشتكي له من التهاب في العيون وقلت له أنّني تلميذ ولكي أعيش أعمل عدّة أعمال أترجم وأدرس وأؤلّف كتباً وكانت الكتب تخرج بأسماء أخرى، وأنّني أرهق عيوني لمدة ستّ عشرة ساعة فأجاب تستعملها ستّ عشرة ساعة فقط؟

ثمّ أكمل استعملها أكثر تصير عيونك أفضل واعلم أنّ العضو الذي لا يعمل يضمر، وكلّما استعملت أعضاءك أكثر أصبحت أكثر كفاءة.

ويقول أبوغزاله فلا تجعل أحداً يقول لك: ارتاح وريّح فكرك وريّح عيونك.

الأردن

انتقلت المجموعة إلى الأردن، كان القدر حتميّاً أن نغادر الكويت إلى عمّان وبدأت انطلاقة المجموعة نحو العالميّة.

الكويت كانت فترة التكوين وكان للمجموعة ثلاثون فرعاً، لكن الانطلاق العالميّ كان من الأردن...

أعتزّ بكوني مواطناً أردنيّاً وبدأت في مكتب الأردن مع بدايات عملي وحصلت على الجنسيّة الأردنيّة كما أكرمت الأردن الكثير من أبناء الشعب الفلسطينيّ، وأنا مواطن درجة أولى ولا أرى ايّ أردنيّ يتميّز عنّي في أيّ شيء، وتمّ تكريمي من جلالة الملك عبد الله الثاني بتعييني عضواً في مجلس الأعيان، ودوماً اعتز بذلك.

عندما حدث الغزو العراقي للكويت في عام ١٩٩٠ كنت في مدينة سالزبورج بالنّمسا مع الصديق العزيز عبد اللطيف الحمد رئيس الصندوق العربيّ للإنماء الاقتصاديّ والاجتماعيّ، كان خبر الغزو صدمة كبرى لم نستطع أن نعود إلى الكويت واضطُرِرْنا إلى أن نبقى في الخارج.

في داخل الكويت تعرّض بيتي للاقتحام من جانب القوّات العراقيّة وأصبح مركزاً لهم، ولمّا استرجعته بعد تحرير الكويت كانت آثار غرف التعذيب وآثار تعليمات فرق الشرطة وغيرها، وكلّه مصوّر.

تمّت السيطرة على البيت والمكتب وتمّ تصنيفي بحكم علاقتي مع أسرة الصباح من الأعداء.

قرّرنا العودة إلى الأردن وانتقل المكتب الإقليميّ للمجموعة من الكويت إلى الأردن ووجدنا كلّ التسهيلات في مجالنا.

هذه الفترة كانت صعبة جدّاً، انقطعت موارد الرزق من الكويت كان عندي في

الكويت خمسمائة موظّف وهم من الأردن، كلّ مَن جاء معي إلى الأردن تعهّدت بدفع راتبه حتّى يؤمَّن له عمل جديد أو أن نبدأ معه العمل.

بعد مغادرة الكويت اتّخذت قراري بأن يكون الأردن مقرّاً للشركة، وبخاصة أنّ للشركة فرعاً لها في الأردن منذ عام ١٩٧٢.

في هذه الفترة العصيبة حدثت واقعة مثيرة جدّاً حيث تلقّيت عرضاً من شركة آرثر أندرسون الأمريكيّة العالميّة العملاقة، وهي إحدى الخمس الكبرى ومجالها المحاسبة والتدقيق قدّمت عرضاً لانضمام شركة طلال أبوغزاله إليها، مستغلّة أزمة خروج الشركة من الكويت، لم أرفض ودخلت في مفاوضات معهم وفي نيّتي عدم الاندماج، وقدّمت عرضاً في النّهاية اعتبرته في حينه «عرضاً سخيفاً»، كون الاندماج، وفق المفهوم الاقتصادي هو «السحق والانتهاء» بحيث يستولون على الشركة ويحتفظون بمن يرغبون من الموظفين ويتمّ تعييني مستشاراً.

قلت لهم: لديّ عرض وهو قلب الطاولة، أي أن تقوم شركتي بشراء شركتهم وبالشروط نفسها. هذا الكلام استفزّهم، وشركتي بنظرهم صغيرة من بلد نام، لا قيمة لها مع عمالقة الشركات العالميّة، وكان ردهم شبيهاً بالمنتقم: «لم يحدث في التاريخ أن خاطَبنا أحد بهذا الردّ على كلّ الأحوال نحن سنستولي عليك حيّاً أو ميتاً».

أعرف أنّ قرار الحياة والموت بيد الله ورفضتُ العرض.

وأذكر قصّة لها علاقة بالإيمان من بين عروض الشّراكة التي تلقّيتها واحدة من نيلسون روكفيلر، حاكم ولاية نيويورك والمرشّح لرئاسة الولايات المتحدة، لإقامة منطقة حرّة في باخرة بنهر النيل، أيّام الرئيس الراحل أنور السادات، رفضت العرض قائلاً: «لم أسمع في حياتي أنّ بعوضة تشارك فيلاً»، والفيل شعار الحزب الجمهوريّ الذي ينتمي إليه روكفيلر الذي بادر فقال: «إنّ البعوضة أقوى من الفيل، ضعهما الاثنين في غرفة مغلقة، وانظر ماذا سيحدث»؟. لكنّي تمسّكت بالرّفض، وقلت إنّه مشروع غير واقعيّ، ولأنّ الحل لمصر أو لأيّة دولة أخرى في العالم يكمن في تطوير وتحسين أنظمتها الداخليّة، وهو الرّأي الذي رفضه روكفيلر أيضاً، قائلاً: «على أيّة حال بعد عشرين سنة سنلتقي أنا وأنت فقط وهؤلاء –وأشار إلى من هم حولنا– لن يكونوا موجودين، لسبب

بسيط، والدي ووالدك معمّران، والمنطق يقول وراثياً أنّنا سنعيش، وسنلتقي بعد عشرين عاماً».

قاطعتُه قائلاً: «أنا إنسان مؤمن بالله وبالقدر، وقد توافيني المنيّة بأيّة لحظة، إنّ الله حدّد لكلّ إنسان لحظة وفاته منذ ولادته». هكذا انتهى اللقاء، فقفل عائداً إلى الكويت، واتّصل بالسّفارة الأمريكية للاعتذار عن عدم تلبية دعوة العشاء على شرف «ديفيد روكفيلر» شقيق نيلسون، وفوجئ بالرّد: «ألم تعلم ما حدث، إن نيلسون روكفيلر قد مات، بجلطة دماغيّة، ووسائل الإعلام أذاعت الخبر، والعشاء أُلغي».

ويقول أبوغزاله لم يمض سوى أقلّ من عقدين من الزمان، حتّى انهارت هذه الشركة العملاقة يومها كُتب: «إنّها إحدى الشّركات العظيمة التي يحزنني كثيراً انهيارها، تلك الشركة بالرغم من أنّها كانت خصماً لي، إلّا أنّني أحترمُ خصمي، وبخاصّة إذا كان عظيماً بحجم آرثر أندرسون».

كلّ فريق العمل في الكويت من الأردن ظلّ معي وبتكلفة أقلّ والتكلفة انخفضت إلى الثلث كنت أدفع رواتب أعلى في الكويت ثلاث مرّات بسبب غلاء المعيشة، وهذا أعطاني هامشاً أستطيع أن أستثمره في النموّ ليس لدينا في الشركة سياسة توزيع الأرباح كلّ الأرباح نستثمرها في المجموعة وأنا آخذ راتبي من الشركة.

٩٠ ٪ من تكاليفنا هي رواتب، نحن مؤسّسة خدمات مهنيّة، التكلفة الحقيقية هي رواتب المنتجين، هم الموظّفون أمّا الإيجارات والتليفونات وغيرها فأشياء ثانويّة في حساب التكلفة.

كلّ شريك من شركائنا يأخذ مخصّصاته الثانويّة وكلّ ما بعد ذلك يدخل في نموّ وتطوير وزيادة استثمارات المجموعة وكلّ واحد يحصل على المخصصات حسب إنتاجه وموقعه.

هناك في الكويت كان النموّ السريع يشغلنا عن الاهتمام بمناطق أخرى.

عندما جئنا إلى الأردن، وجدنا أنّ العالم أكبر من المحيط الّذي نعمل به اكتشفنا أنّه يمكن التوسّع في دول أخرى بجانب دول الخليج نستطيع أن ننطلق إليها،

اتّجهنا إلى تركيا والهند وباكستان ومونتريال، ووجدنا أنّنا نستطيع أن نصبح مؤسّسة عالميّة.

بعد خسارة الوطن لا شيء له قيمة وكلّ التفاصيل لا تمسّ مشاعري وفي عمّان واجهت مشكلة من العيار الثقيل بعد أن جاء قرار بهدم كل مباني المجموعة وتسليمها للدّولة وفعلاً هدم البلدوزر في ليلة كلّ الأبنية، فقلت لهم وما المشكلة؟ المهمّ ألّا يُصاب أيّ شخص.

لقد تعلّمت الدرس من السيدة التي تقف على أطلال وأحجار بيتها الذي دمّره الإسرائيليون، على الأقلّ أنا أملك البديل والمكان الآخر الذي أذهب إليه أمّا هي فلا. بعد ذلك دخلت في تقاضٍ ضدّ الدّولة وكانت أوّل مرّة يقوم فيها مواطن أردني برفع قضيّة على الدّولة ويأخذ حكماً تنفيذيّاً ويُنَفّذ.

أبوغزاله والمسؤوليّة الاجتماعيّة

مجموعة طلال أبوغزاله ترفع المسؤوليّة الاجتماعيّة في سلّم أولوياتها ومنذ انطلاقها وهي تضع هذا الهدف وتعمل على تحقيقه من خلال تنفيذ المشروعات الخيريّة والوقوف إلى جانب المجتمع ودعم الشرائح الّتي تحتاج المساندة والدّعم.

وأنشأت المجموعة مؤسّسة للمسؤوليّة الاجتماعيّة (TAG-Foundation) تموّلها بالكامل وتدير أربعة وثلاثين برنامجاً مستداماً في خدمة المجتمع.

يعرِّف أبوغزاله المسؤوليّة الاجتماعيّة بأنّها تجسيد لعلاقة الشّراكة للشركة الصّالحة والمواطن الصّالح مع المجتمع وهي نتائج إدراك الفرد والشركة بفضل المجتمع والتّعبير عن الامتنان لذلك الفضل، وإنّ المسؤوليّة المجتمعيّة للشركات والمؤسّسات أمر طبيعيّ، ولا يمكن أن تكون هناك مؤسّسة دون أن يكون لها دور اجتماعيّ والتزام تجاه المجتمع، ونرى أنّها ليست تبرّعاً ولا منّةً، بل هي نتاج شراكة، لأنّ الشركة إيراداتها وأرباحها تتكوّن من المجتمع... لذا من الواجب المساهمة في خدمة المجتمع، الذي يقدّر مَن يقوم بالمسؤوليّة المجتمعيّة، ومن واجب الحكومات في الدّول العربيّة أن تنظّم العلاقة مع الشركات على غرار ما تقوم به الولايات المتّحدة الأمريكيّة، فالقانون هناك ينصّ على أنّه إذا تبرّعت، يتمّ خصم التبرّعات من الضرائب المُستحقّة.

نحن بحاجة إلى هذا التّنظيم، لأنّ الغرب والولايات المتّحدة الأمريكيّة ليسوا أحسن منّا خلقاً، لكنّهم هم أفضل في مرونة القوانين، وهنا يجب أن يتمّ بحث وضع تشريع يحثّ على القيام بالمسؤوليّة المجتمعيّة، وأن تُخصّص الشّركة نسبة معيّنة لخدمة المجتمع، وأن توضع السياسات الملزمة لتحقيق ذلك.

وتعريف الإيثار بشكل أساسيّ هو الاهتمام بمصالح الغير ونبذ الأنانيّة لمصلحة وخير الآخرين. ويمكن اعتبار مفهوم العمل الخيريّ أنّه ذو صلة وثيقة بمصطلح الإيثار عندما يتمّ استخدامه من قِبَل الأفراد أو المنظّمات ذات الموارد الكبيرة لتوفير المال ورأس المال والتعليم، أَو منافع أخرى لباقي البشر دون مصالح مقابلة. وكما قال توماس باين: «إن ديانتي هي عمل الخير».

ويذكر طلال أبوغزاله مقولة ابراهام لنكولن: «عندما أقوم بعمل جيّد، أشعر بالارتياح، وعندما أقوم بعملٍ سيّئ، أشعر بالاستياء، هذا هو ديني».

ويقول المسؤوليّة الاجتماعيّة ببساطة هي الاهتمام غير الأنانيّ بالخير للآخرين. والصدَقة هي مفهوم ذو صلة، ويمكن فهمه على أنّه نوع من الإيثار يمارسه الأفراد أو المؤسسات ممّن يمتلكون موارد كبيرة وذلك من خلال تقديم الأموال أو رأس المال أو التعليم أو منافع أخرى لإخوانهم من بني البشر، فهناك أفراد أثرياء يتركون ثرواتهم أو أجزاء منها لمصلحة قضايا اجتماعيّة مهمّة بعد وفاتهم أو قبلها، ويخصّصونها لإقامة المستشفيات والمكتبات والمدارس والمؤسّسات وأعمال الخير الأخرى، والتي يشار إليها إجمالاً بالترّكات ولقد رأينا في أمريكا الشماليّة منذ القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ثروة هائلة، ورأينا في الوقت ذاته أعمال خيريّة واسعة من أمثال كورنيليوس فاندربيلت، وأندرو كارنيجي، وجيه. بي. مورجان وعمالقة صناعيّين آخرين. ومن بين الأمثلة المعاصرة هناك بيل جيتس «صاحب مايكروسوفت» ومؤسّسة جيتس. ومؤسس فيسبوك الشاب مارك زوكربيرغ وزوجته بريسيلا تشان اللذان تبرّعا بنسبة كبيرة من أسهمهما في الشركة للعمل الخيري، وذلك تزامناً مع الإعلان عن مولد طفلتهما ماكس.

المسؤوليّة الاجتماعيّة تعني أن تكون المؤسّسة «مواطناً صالحاً» من خلال «ردّ الجميل» إلى المجتمع وتشجيع عمل الخير الاجتماعيّ بغضّ النظر عمّا إذا كانت الشركة ستجني مكاسب ماليّة ممّا تبذله.

ولذلك فإنّ المسؤوليّة الاجتماعيّة تتجاوز الأخلاقيّات إلى السّعي لجعل العالم مكاناً أفضل للعيش عن طريق المساعدة في حلّ المشاكل الاجتماعيّة.

ويرى طلال أبوغزاله أنّ العطاء لتحقيق مكاسب ليس إيثاراً ويقول: إنّ الأفعال التي يمليها الواجب والالتزام والقانون ليست هي المقصود بالمسؤوليّة الاجتماعيّة، ومن هنا فإنّ الزكاة في الإسلام والمزايا التي تفرضها الحكومة ويقدّمها أصحاب العمل أو المستحقّات الأخرى لا تشكّل إيثاراً في حدّ ذاتها، ولا يعني هذا الكلام أنّ الشخص الذي يعطي الزكاة أو صاحب العمل الذي يمنح العاملين المزايا التي تشترطها الحكومة ليس لديه شعور بالإيثار في قلبه، بل إنّه من المُحتَمَل حقّاً أن تلتقي روح الإيثار بالواجبات أو المتطلّبات، غير أنّ الإيثار

الحقيقيّ تطوعيّ في طبيعته بشكل جوهريّ. أقرب شيء نجده له صلة بالإيثار لدى المؤسّسات التجاريّة، على الأقل في أي مفهوم عام أو شائع، هو ما يُسمّى المسؤوليّة الاجتماعيّة للمؤسّسات.

المؤسّسات في نظر أبوغزاله تلعب أدواراً مهمّة في المجتمع بحيث أنّ محاولة حصر أهدافها فقط في كسب أكبر قدر من المال قد توحي بأنّ الغرض الوحيد للبشر هو الحصول على المال، وهو مفهوم غير مستحبّ أخلاقيّاً وعلى عكس الأفراد البشر، فإن المؤسّسات غالباً ما تكون كبيرة في حجمها ولها تأثير على الكثير من المجتمعات والدّول وبفضل أنشطتها في التّوظيف والتعاقد وبرامج التنمية الوظيفيّة والبناء والتوسّع والتّصنيع والأنشطة المتعدّدة الأخرى تتمتّع المؤسّسات بالقدرة على أن يكون لها تأثير كبير على العاملين لديها ومجتمعاتها وعملائها وشركائها وموردّيها والمجتمعات المرتبطة بها والتي تشكل هذه الفئات وغيرها جزءاً منها.

ويقول: هناك حركة عالميّة للمسؤوليّة الاجتماعيّة يتعاظم نفوذها، وتضمّ عدداً كبيراً من المؤسّسات الكبرى التي تؤمن بأنّ المؤسّسات، حالها حال الأفراد، يجب أن تهتمّ بما هو أكثر من الرّبح فقط، وأنّها يجب أن تهتمّ بتبعات سلوكها على المجتمع بأكمله، دعونا نفكّر في شركات النّفط العالميّة التي تسعى للحصول على امتيازات في الكونغو أو نيجيريا أو السودان مثلاً فجميع هذه الدول هي مناطق صراع لأنّ الشعوب الأصليّة في المناطق التي توجد فيها الموارد تشعر بالحرمان والإهمال والظّلم ممّا يؤدّي غالباً إلى العنف.

وتُؤمن المجموعة بواجبها عن قناعة وإدراك للمعنى النبيل الّذي يعود على المجتمع والمجموعة في الوقت نفسه من فعل الخير ومشاركة الآخرين في كلّ مكان والمساهمة في الحلول بكلّ التزاماته، هذا الدور لا تتخلّى عنه فهو رسالة أساسيّة تلتزم بها في كلّ مكان نوجد فيه كما تحرص دوماً على أن تغرس هذه القيم في جموع العاملين بها، ولهذا أُطلِقت العديد من المبادرات النوعيّة الخلّاقة، خاصة في مجال التّعليم وبناء القدرات البشريّة وتعزيز التنمية المستدامة في المؤسّسات العربية والإسهام في التطوّر الاجتماعيّ والاقتصاديّ للبلاد العربيّة.

ويقول لا قيمة لانتقاد البعض لمن يؤدّي المسؤوليّة الاجتماعيّة لكونه يستفيد إعلاميّاً أو معنوياً أو مادياً ويقول: بل الأجدر بالذي يوجّه النقد أن يؤدّي هذا الواجب فيُفيد ويستفيد مباشرة أو بطريقة غير مباشرة.

لأنّ المسؤوليّة هي إحدى أدوات التّوازن الاقتصاديّ في المجتمع بل أنّها نشأت لهذا الغرض، ويستدعي هنا ما قاله رئيس الولايات المتّحدة الأمريكيّة روزفلت: «أنّني أؤمن أنّه مادام هنالك خير كثير فإنّ الفقر شرّ كبير».

ويضع أبوغزاله حدّاً فاصلاً بين المسؤوليّة الاجتماعيّة والمسؤوليّة الدينيّة التي يأمر بها الدّين ولا يجوز الخلط بينهما، كما يشير إلى أنّ المسؤوليّة الدينيّة تختلف عن المسؤوليّة السياسيّة ولا يجوز الخلط بينهما أيضاً كما أنّ المسؤوليّة الاجتماعيّة شيء مختلف عن شراكة القطّاع العام مع القطّاع الخاص.

وفيما يتعلّق بالنّاحية الإنسانيّة والأخلاقيّة بين أبوغزاله أنّه يستعين بعبارات فيكتور هوجو حيث قال: «لكي تكتمل السعادة لا يكفي أن تملك السعادة بل من الضروري أن تستحقّها».

ومن المبادرات المهمّة للمجموعة مركز أبوغزاله لإعادة تهيئة أجهزة الحاسوب، وتوزيعها على الجمعيّات الخيريّة والمدارس. وهي المبادرة التي أطلقها طلال أبوغزاله بإعادة تهيئة أجهزة الحاسوب وجعلها صالحة للاستخدام من أجل التبرّع بها وتوزيعها على المجتمعات والمدارس الأقلّ حظّاً في البلاد العربيّة، فقد جهّز فريق الفنيين العاملين في مركز طلال أبوغزاله لإعادة تهيئة الحواسيب حيث تمّ تحديث ألفين وخمسمائة جهاز تمّ توزيعها على عدد من الجمعيّات الخيريّة والمخيّمات والمدارس.

وقد تمّ تأسيس أوّل مركز في الأردن في مخيّم غزّة - جرش، في أوائل عام ٢٠١٠ بالتعاون مع الأمم المتّحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى- الأونروا، ويعمل المركز على تحقيق عدّة أهداف منها ما يلي:

- تزويد جميع سكّان مخيّمات اللاجئين الفلسطينيين تحت مظلّة وكالة الغوث «الأونروا» وجميع القرى المحرومة في شمال الأردن بأجهزة حاسوب مؤهّلة.

- تحسين قدرات الأيدي العاملة في المناطق المستهدفة من خلال مساعدة الطلبة الجامعيين والخرّيجين الجدد على العمل في المركز لصالح مجتمعاتهم المحليّة والمجتمع ككل.

هذا المشروع تمّ إطلاقه بعد تفاهم مع الحكومة الأردنيّة، وكنتيجة للجهود الخيّرة التي بُذِلت في دعم هذا المشروع كي يلاقي النجاح المنشود، حيث أصدرت رئاسة الوزراء آنذاك تعميماً لجميع الوزارات والمؤسسات الحكوميّة للتبرّع بأجهزتها القديمة وغير المستعملة لمركز طلال أبوغزاله لإعادة تهيئة الحاسوب. وقد استجابت معظم الوزارات والمؤسّسات الحكوميّة الأردنيّة استجابة سريعة وكبيرة.

سفيراً للمسؤوليّة

مَنح مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلاميّة الدكتور طلال أبوغزاله لقب سفير دوليّ للمسؤوليّة الاجتماعيّة في احتفال أُقيم بمقرّ كليّة طلال أبوغزاله في المنامة بالبحرين، وحضره المشير سوار الذهب، الشخصيّة العربية البارزة، ووزيرة التنمية الاجتماعيّة الدكتورة فاطمة البلوشي.

يومها كشف أن مَنحَه لقب «سفير دوليّ» من قبل الشبكة الإقليميّة للمسؤوليّة الاجتماعيّة ثمّ إطلاق مشروع جائزة للمبادرات المجتمعيّة تحمل اسمه، إنمّا هو شرف كبير يلقي على عاتقه مسؤوليّة كبرى لمضاعفة الجهد والوقت لتحقيق رسالة الجائزة المتمثلة في النهوض بالعمل المجتمعي إلى آفاق التميُّز والاحترافية والأداء المؤسّسي لنشر وترسيخ الوعي بقيم العمل المجتمعي وكذلك ترسيخ رؤية وأهداف الجائزة.

وقال: هذا التّكريم الكريم يعود إلى عام ١٩٧٢ أي منذ تأسيس المجموعة حيث لم تكن المسؤوليّة الاجتماعية بهذا الوعي والزخم الإعلامي، فقد التزمت المجموعة سياسة تتجاوز مجرد الحصول على الأعمال وزيادة الدخل، فأعلنت أنّ رسالتها هي تقديم خدمات مهنيّة عالية الجودة، وبناء القدرات والإسهام في التنمية الاجتماعيّة والاقتصاديّة للعالم العربي.

وفي هذا الشأن، فإنّ ما أثبتته تجارب المجموعة في تاريخها الطويل، إنّ المجتمع يزيد من فضله على الشركة والفرد ويقدّرهم لشعورهم بالمسؤوليّة فالشعور بالمسؤوليّة فيه إدراك عقلانيّ عبرّ عنه أبو الاقتصاد آدم سميث حيث قال: «من الأفضل أن يكون جارك غنيّاً من أن يكون فقيراً».

وما قاله ألبرت آينشتاين «بأنّ الدّين الحقيقي هو أن تعيش حياتك بكلّ جوارحك وبكلّ ما في نفسك من خير واستقامة وصلاح»، كما يعبرّ عن هذا المفهوم الأخلاقيّ فيكتور هيجو إذ قال: «إنّ مَن هو طيب أفضل ممّن هو عظيم».

وعلى ذكر فيكتور هوجو: قد يعتقد البعض أنّني أتخذ موقفاً من الحضارة العربيّة ورموزها من كثرة الاستدلال بالمقولات الغربية، والحقيقة هي رغبة

منّي أن أضيف لمن يقرأ حكمة أو معلومة جديدة تضاف إلى رصيده من المأثورات العربية، أنا أفترض أنّ المواطن العربيّ مثلي بل أكثر اطلاعاً على تراثنا وعلى الحكم العربية، التي تفوق الحضارة الغربية في هذا المجال، وأنا دائما في الملتقيات والمنتديات التي أشارك فيها أقول: الحضارة العربية تقوم على محتوى أخلاقيّ ومعنويّ تفتقدهما الحضارة الغربية التي تقوم على الماديّة فقط بخلاف حضارتنا العربية المبنية على الأخلاق والمبادئ.

أبوغزاله يرى أن المسؤوليّة الاجتماعيّة هي رسالة لكلّ مؤمن، وقد قالت الأم تريزا: «إذا كنّا لا نستطيع أن نحب الناس الذين نراهم فكيف لنا أن نحب الله الذي لا نراه».

من المبادرات المهمّة الّتي أطلقتها المجموعة سوق القدس الإلكتروني لدعم المقدسيين، وهي بوّابة إلكترونيّة وسوق تجاري حيّ بين فلسطين والعالم، دعماً لصمود الشعب الفلسطينيّ في القدس.

ويُعدّ سوق القدس القديمة أكبر وأضخم سوق تاريخي في العالم بما يحتويه من منتجات. كما يضمّ ضمن أسواره ثمانية وثلاثين ألفاً من السكّان العرب وألفاً وأربعمائة منفّذ تجاري حيث يدخل الزائر من خلال البوّابات السبع إلى أسواق البلدة القديمة برغم أنّ مساحة البلدة القديمة تبلغ كيلو متراً مربّعاً واحداً فقط.

ويحتوي السوق على جميع أنواع المنتجات والسلع الحرفيّة الشرقيّة التي تميّز تاريخ وحضارة البلدة القديمة من أثاث وملابس شرقيّة تقليديّة ومن الجلود والأطعمة الشرقيّة بالإضافة إلى الخدمات الفندقيّة «فيها خمسة فنادق». ويُعدّ هذا السوق سوقاً للسلع والخدمات يمكن من خلاله توظيف الكفاءات في كلّ القطاعات كالترجمة والدراسات. ويشكّل هذا المشروع التّوظيف العصري للتكنولوجيا في تدعيم ثبات المقدسيين على أرضهم واستثماراً فريداً لمقوّمات الثقافة الحديثة وتجسيداً فعليّاً للفعل في مقابل الوعود والشعارات التي عانى منها المقدسيون ولم تنفّذ.

كما تبنّت المجموعة تأسيس السوق الفلسطيني التبادلي، بوّابة إلكترونيّة لتسهيل مهام رجال الأعمال الفلسطينيين مع الخارج، وهو عبارة عن موقع

للتجارة الإلكترونية ما بين رجال الأعمال الفلسطينيين في داخل الوطن المحتل ونظرائهم في الخارج. وسيتمكّن رجال الأعمال من تبادل الأعمال التجاريّة كاملة من خلال الموقع الكترونيّاً حيث تساعد التجارة الإلكترونية على التواصل الفعّال مع الشركاء والعملاء، ممّا يؤدّي إلى تخفيض مصاريف الشّركات وانخفاض تكاليف البحث على المشترين وبالتالي زيادة الأرباح. كما تساعد على تحسين المرونة الإنتاجيّة من خلال ضمان تجهيز البضائع بناءً على الطلب وفي الوقت المناسب، وتحسين جودة المنتجات وإيجاد قدر أكبر من شفافيّة الأسعار.

كما تمّ إنشاء الجمعيّة الأردنية للشركات العائليّة، لنشر الوعي وتطوير معايير الحوكمة وتهدف الجمعيّة لنشر الوعي بخصوص الدور المهم الذي تلعبه الشركات العائلية في الاقتصاد العالمي كما تهدف إلى بناء قدرات هذه الشركات بهدف دعم تطورها وازدهارها في الأردن.

تُحقّق الجمعية أهدافها من خلال البحوث والخبرات والتجارب من خلال تبنّي تجارب أفضل للشركات العائليّة القائمة والتي استطاعت التغلّب على التحديات الكامنة وازدهرت على صعيدي العمل والعائلة.

ومن مهام الجمعيّة وضع وتطوير ونشر معايير حوكمة الشركات العائليّة في الأردن والعالم بالإضافة إلى نشر الوعي بخصوص التحديات التي تواجه الشركات العائلية وتزويد هذه الشركات بالدّعم والتدريب الضروري لضمان استمراريّتها بالتعاون مع الأطراف المحليّة والإقليميّة والدوليّة، وإعداد البحوث والدّراسات المتخصّصة في الشركات العائليّة وتعميمها على الأعضاء بحيث تتضمّن آخر التطوّرات والمعارف المتاحة لإنجاح مشاريعهم كما تساعدهم على تطوير الأعمال والأساليب الإداريّة، والاستشارات الماليّة المتخصّصة والموارد ومهارات الاتصال الفعّال واستراتيجيات مبتكرة لتطوير المشاريع.

وفي مجال الإعلام قدّمت المجموعة حزمة من الخدمات المهنيّة لتعزيز أداء ودور وكالة الأنباء الأردنيّة «بترا». من خلال تطوير الخدمات التكنولوجيّة التي تقدّمها الوكالة ورفع قدرات العاملين فيها، وقدّمت للوكالة عدداً من الخدمات في مجالات الحلول الالكترونية وتدريب المستخدمين.

وهناك ملتقى طلال أبوغزاله «ساحة للحوار وتبادل المعرفة». والّذي أنشىء في كلّية طلال أبوغزاله للدراسات العليا في إدارة الأعمال ليكون ساحة للحوار وتبادل الأفكار والخبرات بين قادة القطّاعات الاقتصاديّة، ورجال الأعمال وأصحاب المهن والأكاديميين والمخترعين والمهنيين، بقطاع تكنولوجيا المعلومات والاتّصالات ومؤسّسات المجتمع المدنيّ للنهوض بالأعمال بما يسهم في النموّ والتّقدّم الاقتصاديّ والاجتماعيّ العربيّ، وللقيام بدور أساسيّ في تنشيط وتفعيل الحوار وتبادل الخبرات في قطاعَي الأعمال والملكيّة الفكريّة وبما يعزّز النهضة الاقتصاديّة والتنموية للمجتمع العربيّ إضافة إلى تعزيز تطوّر الأعمال وتعزيز التنمية الاقتصاديّة والاجتماعيّة العربيّة. وقد استضاف الملتقى عشرات المؤتمرات والنّدوات ووِرَش العمل وقدّمت إدارة الملتقى الرعاية والدّعم اللوجيستي وكلّ الإمكانيّات لِتسهيل أعمال هذه الفعّاليّات، كما تمّ إنشاء مركز طلال أبوغزاله كامبردج لمهارات تقنيّة المعلومات، للمساهمة في بناء مجتمع المعرفة، في عام ٢٠٠١ كمشروع غير ربحيّ بالتعاون ما بين هيئة الامتحانات الدوليّة- جامعة كامبردج البريطانية التي تُعَدّ أضخم مزوّد للمؤهّلات الدوليّة في العالم، وتشكّل هذه الهيئة جزءاً من جامعة كامبردج. ويهدف المركز إلى توفير دورات تدريبيّة تغطّي البرامج الخاصّة بنظام تشغيل الحاسب الآلي وباستعمال الإنترنت والبريد الإلكتروني والجداول الإلكترونيّة ومعالج النصوص وقواعد البيانات والعروض التقدّمية. ويفخر مركز طلال أبوغزاله كامبردج للتدريب بأنّ له حضوراً في أكثر من ثلاثمائة موقع في مختلف الدّول العربيّة قامت بتدريب وتأهيل مئات الآلاف من مختلف الأعمار وقطّاعات المجتمع.

ومن الأهداف الرئيسيّة الأخرى للمركز محو أمية الإنترنت وإزالة الحاجز النفسيّ لاستخدام تقنيّة المعلومات، وتقييم قدرات المرشّح عند استخدامه تطبيقات برمجية محدّدة في تقنيّة المعلومات، ورفع مستوى مهارات استخدام الكمبيوتر وتزويد كلّ فئات المجتمع بمهارات تقنيّة المعلومات، وتطبيق تقنيّات عالية الجودة في الخدمات المستخدمة وتطوير تقنيّات برامج امتحانات ممكنة بالكامل، ويخضع المركز وكلّ المراكز التابعة له لإجراءات ضمان الجودة من قبل هيئة كامبردج للامتحانات الدولية ومكاتبها بالعالم العربي.

خبرة الإدارة

لا يعترف أبوغزاله بوجود موظّفين أو مستخدمين في شركاته، بل يعتبر الجميع عائلة واحدة، ويقول الجميع داخل المجموعة يناديني معلّمي أو والدي، يؤمنون بأنّني أنشأت مدرسة، نحن لسنا مؤسّسة رؤوس أموال، استثماراتنا ليست في عقار أو في مصرف، استثماراتنا في البشر، والاستثمار في البشر لا يضيع.

نحن أبناء الأمّة العربيّة أساس كلّ العلوم والآداب البشرية الّتي بنت حضارة العالم فأوّل كتاب محاسبة في الدنيا وجد في الرافدين، وأوّل خزنة مال وجدت في مدينة البتراء، وأوّل اختراعات الطب والفيزياء وكلّ العلوم اختراعات عربيّة، ولو لم يخترع العرب الصفر لما وجد الإنترنت. ومن هذا الشعور كان التّفكير الأكبر على الدوام أن نعمل على تحويل المجموعة إلى مؤسّسة معـرفيّة لتتناسـب مهامنـا وبرامجنا وأنشطتنا المهنيـّة مـع روح العصـر، كمـا كانت فــي الصدارة كمؤسّسة مهنيّة في إصدار المعاجم في مجالات متعدّدة كالمحاسبة، والأعمال، والملكيّة الفكريّة وبراءات الاختراع، والقانون، وتقنيّة المعلومات والمتلازمات اللفظيّة وتعمل على تطوير وتحديث هذه الإصدارات باستمرار كما تحمّلت المجموعة ومن واقع مسؤوليّتها المهنيّة إصدار الترجمة العربية الوحيدة والمعتمدة مـن معاييـر المحاسبة الدوليّة ومعاييـــر التّدقيـق الدولية.

وتلتزم بأشدّ درجات الالتزام بتطبيق المعايير الدوليّة في كافة تعاملاتها كما لا تكفّ عن حثّ الدول والشركات على الالتزام حيث تمّ اختصار هذه المعايير ممّا يزيد على ثلاثة آلاف معيار إلى ثلاثمائة معيار، وذلك تسهيلاً على الشركات الصغيرة للالتزام بها مع سهولة التطبيق.

ومهنة المحاسبة يجب أن تطور عملها وأن تنظر إلى المستقبل في عهد ثورة المعرفة وأن تتحوّل إلى هيئات معرفيّة باعتبار أنّ المعايير الدوليّة جميعها هي معايير ما قبل مجتمع المعرفة الذي يتطلّب إحداث ثورة في صياغة وابتداع معايير جديدة نحتاجها في عصر المعرفة. ففي مرحلة التحوّل التاريخيّ نتيجة للتطوّرات السريعة والجارفة في مجال تقنيّة المعلومات والاتّصالات يفرض

على كلّ المؤسّسات تطوير بنيتها التحتيّة المعلوماتيّة وممارسة نشاطاتها بالوسائل الرقميّة إن أرادت البقاء وتكون قادرة على الاستمراريّة والمنافسة.

عالمنا اليوم أصبح يضمّ بينه مَن أسماهم «مواطنون في عالم المعرفة» وهم هؤلاء الأطفال الذين يشربون الحليب مع تقنيات المعرفة ومنهم جيلنا النازح أو الطارئ على عالم المعرفة والإحصائيّات الّتي يعلنها الاتحاد الدوليّ للاتصالات تشير إلى أنّ نسبة الزيادة في عدد مواطني عالم المعرفة ستؤدي إلى أن يصبح أولئك المواطنون النسبة الأكبر والمهيمنة على عالمنا.

وقوّة المؤسّسات أصبحت رهناً بتطوّرها التقني كما حصل في حالة شركة أبوغزاله للملكيّة الفكريّة والتي أصبحت الأكبر في العالم في مجالها بفضل ذلك.

كما أنّ شركة طلال أبوغزاله الدوليّة لتدقيق الحسابات، تمكّنت من أن تكون الشّركة المحاسبيّة الوحيدة في المنطقة من بين عشرين شركة عالميّة عابرة للقارات تشترك في عضويّة منتدى الشركات الكبرى تحت مظلّة الاتّحاد الدوليّ للمحاسبين في نيويورك.

المجموعة أطلقت السّحابة الإلكترونيّة الخاصة والتي تمثّل تجربة متقدّمة في القطّاع الخاص تتيح لأفراد المجموعة في مكاتبها ولعملائها ومجلس إداراتها ولطلّاب جامعة طلال أبوغزاله الرقميّة العالميّة محيطاً رقميّاً متكاملاً يزيد من قدراتها على أداء خدماتها بشكل أفضل.

ويقول ليس المطلوب من مجالس الإدارة أن تصبح مجالس خبراء في تقنيّة المعلومات والاتصالات بل أنّ دورها ومسؤوليّتها في اتخاذ القرار لتحوّل كلّ نشاطاتها كما تصبح معرفية أي أن تُدار بتقنيّات المعلومات والاتصالات، وذلك من خلال اختيار الخبراء الأكفّاء والاستعانة بالمستشارين مشيراً إلى أن شركة طلال أبوغزاله لتقنية المعلومات والاتصالات تقدّم هذه الاستشارات لعملائها في القطّاع العام والخاص على مستوى المنطقة.

وأنا لست خبيراً ولكنّي من موقع مسؤوليّتي في مجلس الإدارة أتّخذ القرار ويتولّى خبراء المجموعة تنفيذه.

الزوجة والأبناء في علم الإدارة

وضع طلال أبوغزاله حدّاً فاصلاً بين عائلته والمجموعة الّتي أسّسها. عائلته تتكوّن من الزوجة السيدة «نهى سلامة» وله أربعة أبناء ولدان«لؤي» و«قُصَي» وابنتان «مي» و«جمانة»، منذ بداية رحلته العمليّة وهو يضع هذا الحدّ ولا يفضّل أبداً أن تكون هناك مساحات متداخله بين الشؤون العائليّة والعمل.

وكلّ مَن تعامل مع الزوجة السيدة نهى سلامة سيعرف دون جهد أنّها زوجة تقف بكلّ قوّتها خلفه تدفعه إلى الأمام وتتحمّل عن طيب خاطر مهام البيت والأولاد في كل المراحل حتّى يتفرغ لمسؤوليّات العمل.

وهي سيّدة مثقّفة لها حضورها وشخصيّتها وفي المرّات القليلة الّتي حضرت مع المجموعة بعض المؤتمرات الخارجية كانت تمارس الدّور المكمّل لرئيس المجموعة بطريقة عفويّة من خلال تقديم كلّ المساندة، وحلّ أيّة مشاكل تنظيميّة بخبرتها.

وبدت بصماتها كزوجة واعية وأمّ مثقّفة في تربية الأبناء في ظلّ الانشغال الدائم للزوج بمسؤوليّات العمل والسفر غير المنقطع لبلدان العالم.

فهي تؤدّي رسالة الأمّ والزوجة على الوجه الأكمل في هدوء وتقدير لجسامة المهام الّتي يتحملّها الزوج والأب.

يقول أبوغزاله: من أصعب المسؤوليّات أن يعمل الأبناء مع والدهم في نفس المؤسّسة، خصوصاً في الحالات الّتي يضع فيها الأب نظاماً صارماً مثلي، لا يقبل تحت أيّ وضع التهاون فيه ويقدّم اعتبارات العمل فوق كلّ الاعتبارات، أعتبر نفسي والداً قاسياً في العمل، فأنا أتوقع منهم الكثير وأقسو عليهم كثيراً، لأنّهم الأقرب وكلّما كان الشخص قريباً لي كانت قسوتي عليه أكثر لأنّني أريده أن ينمو ويبدع.

وأقول: ربيّ أنعم عليّ بأولاد وهم يعملون في المؤسسة.

أنا فعلاً محظوظ ومن أكبر نعم الله على الإنسان الذريّة الصالحة، أولادي هم مالكون ولكنّهم يمارسون العمل بكلّ المهام والهمّة كما يتوجّب على كلّ موظّف.

أبنائي لا ينادونني بالعمل إلا سيّدي أو معلّمي.

ومع هذا يقول: البعض يعتقد في أنّ الشركات العائليّة منتشرة في العالم العربيّ أكثر من الولايات المتحدة أو كندا، ويثبت عكس ذلك بالأرقام فيقول: إنّ نحو ثلث الشركات المدرجة في قائمة شركات فورتشن هي خمسمائة شركة عائليّة، وكذلك نحو ثلثيّ الشركات المدرجة في سوق نيويورك، للأسهم هي أيضاً شركات عائليّة.

ويقول نحن مجرّد بشر في الكون، وبعضنا قد يلقى ربّه قريباً. والبقاء لفترة طويلة من العمر ليس نعمة يتمتّع بها كلّ الناس.

ويشير إلى أنّ الخبراء المتخصّصين في الإحصاء «الإكتواريين» يوظّفون مهاراتهم لتحقيق الأرباح لشركات التأمين على الحياة وهم نفس الأشخاص الذين يقدّمون لنا صورة إيجابية عن وفاتنا في بياناتهم الإحصائية «الإكتوارية» وهي جداول إحصائية تخبر الناس كم من السنين سيعيشون خلال فترة معيّنة في حياتهم إذا كان نمط حياتهم يشبه إلى حدّ كبير نمط حياة الكثير من الناس الآخرين.

وسيتوفانا الله يوماً ما إلّا أنّ حياتنا ستستمر من خلال عائلتنا وفيما سنورّثه لأولادنا، ألا وهو العمل الذي نبنيه من الصفر ونمُضي حياتنا في الاعتناء به كما نعتني بأولادنا حتّى تصبح هذه الأعمال مشروعات ضخمة وناجحة.

إنّ حلم معظم أولئك الناس الذين يملكون شركات عائليّة ناجحة هو أن تبقى هذه الأعمال لفترة طويلة بعد رحيلهم. وللأسف الحال ليست هكذا، لأنّ حوالي ٧٠٪ من الشركات العائليّة تفشل ولا تستمر للجيل التالي، وحوالي ١٥٪ منها فقط تستمرّ للجيل الثالث. ومن المُحزن حقّاً أنّ الصورة التي تعكسها الجداول للشركات العائليّة ليست أكثر تفاؤلاً.

وبرغم ذلك كلّه، هناك جانب مشرق في الأمر. فمع أنّه ليس باستطاعة أحدنا، رجلاً كان أم امرأة، أن يؤجّل يوم وفاته المُقَدّر له، إلّا أنّ لديه الفرصة لإطالة عمر الشركة التي يملكها والحفاظ على الميراث الذي سيخلّفه وراءه.

والرأي الذي يُجمع عليه خبراء الشركات العائليّة هو أنّ أفضل طريقة للتّعامل مع القضايا العائليّة في الشركات العائليّة هو تطبيق النظام واللوائح. وفي العادة، حين يبذل المؤسّسون أو القادة محاولات يعتقدون أنّها مثمرة للنأي بالمشاكل العائلية عن العمل، يجدون أنّ الفصل بين الأمرين ليس بهذه السهولة. فقد تجعل العائلة إدارة العمل مهمّة صعبة المنال، وفي المقابل يمكن للعمل أن يجعل من إدارة شؤون العائلة أمراً صعباً كذلك.

إنّها مهمّة معقّدة لأنّها بحاجة لمعالجة قضايا العمل والأمور العائليّة بطريقة تكامليّة نوعاً ما. وربمّا أفضل شيء يمكن للمدير القيام به كمدير تنفيذيّ هو أن يبذل كلّ ما في وسعه لأن يكون مستمعاً جيداً، ومنفتحاً ليسمع ما يقوله الآخرون على مستوى المؤسّسة. وحتّى ينجح في هذا المسعى، عليه أن يعمل جدّياً لتشجيع الأفكار التي يختلف معها.

ويضع طلال أبوغزاله خلاصة خبراته في كيفيّة نجاح الإدارة في الشركات العائليّة فيقول كعضو في العائلة: يجب ألّا يكون له شأن في العمل، ويجب تطبيق كافّة القواعد المعتمدة على أفراد العائلة الذين يشغلون مناصب تنفيذيّة، ويجب أن يكون الجميع متساوين أمام الأنظمة واللوائح، يجب أن يكون الهدف استمراريّة المؤسّسة العائليّة ونجاحها وليس السعي إلى إرضاء أو إسعاد أفراد العائلة.

في مجتمع المعرفة، تكتسب «فرص العمل» معنىً جديداً وموسّعاً، حيث تتحسّن نوعيّة الوظائف والعمل المتاح بسرعة مع توافر المعلومات والتطبيقات والابتكارات الجديدة في مجال الإنتاج والخدمات. كما تؤدّي تطبيقات المعرفة إلى إيجاد أساليب عمل وطرق جديدة لتنظيم العمل. والأهمّ من ذلك كلّه، فإنّها تؤدّي إلى بناء شبكات تمتدّ عبر الحدود الماديّة والوظيفيّة والقطاعيّة وإلى إيجاد شبكات اقتصاديّة ومجتمعيّة تتّسم بنطاق واسع من تبادل المعرفة والخبرات وتَولّي عمليات البحث والتطوير بشكل جماعيّ في بيئة مترابطة.

أذكر أنّني في الثمانينيات حضرت ندوة في واشنطن، وكانوا يبحثون في «أين سيكون موقع أمريكا عام ٢٠٢٠»، تخيّل في عام ٨٠ يفتّشون عن موقع بلادهم بعد ٤٠ سنة، وكانت النتيجة أنّ القوّة الحقيقيّة هي الاقتصاديّة وليس العسكريّة، وثبت ذلك بانهيار الاتّحاد السوفييتي، الّذي كان ضحيّة لعبة أمريكيّة ذكيّة أقنعته أن يصبح القوّة العسكريّة الأقوى ليوجّه كلّ استثماراته للسّلاح ويكدّس كميّات مهولة من السلاح، بينما الاقتصاد ينهار وسقط في هذه المصيدة، والصين تعلّمت هذا الدرس ولم تدخل في هذا السباق، لكن الآن عادت روسيا بديلاً عن الاتّحاد السوفييتي وهي الآن أغنى دولة في العالم وأصبحت أوّل دولة مصدّرة للنفط وقوّة عظمى... وضمن مجموعة البريكس التي تضمّ البرازيل والهند والصين، هذه الدول الأربع هي القوة الصّاعدة الرئيسيّة في العالم وستكون المهيمنة على مجموعة الثماني الكبار في العالم، وكما قال رئيس البنك الدوليّ السابق فإنّ الثماني الكبار ستصبح من التاريخ وسيحلّ مكانَها سبع أخرى ستكون هي الأربع دول إضافة إلى أمريكا وألمانيا.

وهنا تأتي أهميّة الإدارة على مستوى الدولة وهو مستوى أكبر وأشمل من المؤسّسة والشركة.

الخاتمة

في العالم العربيّ نماذج لا حصر لها أضاءت الطريق الوعر بنجاحاتها وتفرّدها، وكتاب طلال أبوغزاله الصعود إلى القمّة يتحدّث عن كلّ هؤلاء في شخص أبوغزاله.

الكتاب جاء محاولة بسيطة لتعريف القارئ في كلّ مكان بهذه الشخصية الّتي صنعت نجاحات في مجالات المحاسبة والملكيّة الفكريّة والإدارة أكبر بكثير من تلك الّتي جاء ذكرها في الكتاب، فمسيرة حياته بها مواقف وإنجازات كان من الصعب حصرها في كتاب واحد، ومع هذا تناول الكتاب بعضاً من المحطّات البارزة في مسيرته حتّى يبقى الباب مفتوحاً أمام اجتهادات أخرى في الكتابة تكتب عنه وعن حياته كشخصية عربية مرموقة فكلّ فترة زمنيّة في مشواره هي في حدّ ذاتها قصّة في التفوّق مكتملة الفصول والملامح تصلح أن تكون عنواناً لكتاب جديد قيّم، يمتلئ بالقيم والعطاء والمعاني الجميلة، تحتاجه المكتبة العربيّة لأنّها تجربة ثريّة بالأحداث غزيرة الإنتاج متنوّعة الأوجه، فلم يكن الهدف استعراض هذه النّجاحات أو الحديث عنها لمجرّد الحديث، وإنمّا الهدف هو كيف نحصل من هذه السيرة على مفاتيح التّعامل مع الحياة في كلّ صوَرِها المريرة والمُبهجة؟ ومن يكون القدوة في العمل والكفاح والعطاء والإنجاز، وقهر التّحديات الصعبة؟ حتّى تتعرّف الأجيال على عطاء مَن أخلصوا في الحياة.

القيمة الّتي لا تُبارى في قصة طلال أبوغزاله -هذا الرجل العصاميّ- كانت في أنّه شخصيّة شغوفة بالعمل وبَذل الجّهد منذ سنوات طفولته الأولى، ومن خلال التّفتيش في أوراق حياته يتكوّن شعور عام هو أنّه كمَن وُلِد في الدنيا ومعه وصيّة حبّ العمل وإتقانه، بإخلاص وضمير وهي أبرز صفات في شخصيّته.

كلّ مَن تعرّف عليه وتعامَل معه يكتشف هذه الصفات في شخصيّته ويضع ثقته المطلقة فيه منذ اللحظة الأولى، وهو دائماً يكون عند حسن الظنّ على الموعد جديراً بهذه الثقة.

مسيرة حياته كما لو خَلَت من الصدامات والنّزاعات إلّا ما نَدَر، فهو يضع نصب عينيه هدفاً لا يبتعد عنه هو العمل بشرف واحترام ورغبة متجدّدة في الصعود إلى القمّة لإثبات أنّ كلّ إنسان يطمح في المستقبل عليه أن يعمل بكلّ ما في وسعه من أجل بلوغ هذا المستقبل، لا ينتظر من غيره أن يصنع له الحلم أو أن يختاره غيره، لامجال للخلافات الشخصيّة، أو الدّخول في قضايا ثانويّة يفتعلها البعض بدوافع الغيرة أو تلك الّتي تحرّكها شهوة عدم قبول نجاح الآخر، فهي أعراض لا تخرج أبداً من نفوس الزاهدين في كلّ ما هو في يد الغير.

وَضَع أبوغزاله من خلال سيرته الّتي جاءت في كتاب طلال أبوغزاله حدّاً فاصلاً بين تمسّكه في كلّ وقت بالدفاع عمّا يعتقد أنّه الحقّ سواء الحقّ الشخصيّ أو العام، وبين رفضه الدّخول في مهاترات الهدف، منها الغيرة المهنيّة والشخصيّة.

ولعلّ الدّرس الكاشف في هذه السيرة هو الحرص دوماً على البوح بمرحلة البدايات القاسية الّتي مرّ بها بكلّ صدق وفخر دون تجميل لدرجة -قد يغبطه البعض عليها- من فرط اعتزازه بها واعتبارها السبب في كلّ ما وصل إليه.

واللافت للانتباه أنّ أبوغزاله لم يشأ في أيّ وقت أن يقدّم صورة محبطة أو أن يتحدّث عن معاناته بوجع أو ألم بل يتذكّرها في صورة أقرب إلى شخصيّة البطل الّذي نجح في ترويض الحياة القاسية وتطويعها مهما كانت صعبة، ويُروى من بين هذه المواقف تلك الّتي كانت فارقة في سنواته الأولى، ولا يتذكّر أبداً ما كان يؤلم كما لو كانت طفولته القاسية محبّبة إلى نفسه وهو الّذي اختارها -باستثناء ألم التّهجير والشتات والاحتلال- وهي مرارة تعيش داخله وداخل كلّ فلسطينيّ وعربيّ.

قيمة أخرى بالغة الأهميّة في شخصيّة أبوغزاله في أنّه يحفظ الفضل لأصحابه ويذكره في كلّ وقت وهي فضيلة من صفات الكبار، في كلّ مرّة يتحدّث فيها عن مشواره يذكر بالخير كلّ مَن سانده ووقف إلى جواره والحديث عنه بما يستحقّ من باب الوفاء والعرفان بالجميل، لم ينسَ كلّ من سانده عندما كان يعيش في لبنان في أصعب مراحل عمره، يتذكّر بالاسم والفعل الجميع، كما يحفظ سنوات العمل في الكويت عن ظهر قلب كما لو كانت تفاصيلها حدثت بالأمس ويستدعي في كلّ وقت المواقف الّتي لا تُنسى عن طيبة وكرم هذا الشعب ومآثر الأسرة الحاكمة، ويعيش على الدوام بمشاعر الامتنان للأردن

المملكة الّتي توسّعت فيها مجموعته وباتت الوطن والحضن بعد أن انتقل إليها على أثر الغزو العراقي للكويت.

وقد يكون الدرس المستفاد من هذه السيرة هو أنّ صاحبها طلال أبوغزاله يمارس المفهوم الحقيقيّ للديمقراطيّة في بيئة العمل وفي حياته الخاصّة فهو يضع الحدود الفاصلة بين مجموعته وبين عائلته، فهو يعتقد كثيراً في أهميّة الفصل بين العائلة والمؤسسة، كما عبّر عن ممارسته للفعل الديمقراطيّ عندما لم يمنع كريمته جمانة من السفر إلى يافا، على الرّغم من قراره النهائيّ بعدم زيارة الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة مادامت تحت سيطرة الاحتلال الإسرائيلي.

في النهاية لا أملك إلّا أن أعبّر عن شعوري التامّ بالسعادة لكتابة قصّة حياة طلال أبوغزاله الّذي يشدّ الانتباه في كلّ وقت بطريقته في التّعامل مع الحياة ببساطة، والّذي يحتفظ على الدوام بالابتسامة على وجهه، في أصعب الظروف، ويخاطب الصغير في مجموعته قبل الكبير بكلمة الزميل، ويتحمّل في داخله مرارات في كثير من الأحيان دون أن يشعر أحد بها، كما لو كان يحتفظ بالحزن لنفسه ويشارك بالفرح غيره.

وألتمسُ من القارئ الكريم أن يتقبّل منّي التّقصير غير المقصود إن وجده بعد قراءة الكتاب فكان وما يزال كلّ أملي أن أكون قد وُفّقْت قدَر الإمكان في تناوُل قصّة حياته.

وكم كنتُ فخوراً عندما وَعَدَ الكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل بكتابة مقدّمة الكتاب، لكنّ القدر لمْ يمهلْه، فالصداقة الّتي كانت تربط أبوغزاله بالأستاذ هيكل عميقة والتّقدير الشخصيّ والمهنيّ بينهما كان في أعلى درجاته.

سيبقى كتاب طلال أبوغزاله الصعود إلى القمّة تجربة مهمّة في حياتي استفدتُ من البحث في سيرته على المستوى الشخصيّ والمهنيّ، وكلّ كلمة كتبتُها في الكتاب كانت تعبّر عن حالة الصّدق التي أشعر بها نحوه، وبذلت قصارى جهدي في أن أنقل تجربته في الحياة.

والشكر موصول لكلّ مَن ساعدني في إنجاز الكتاب بالمعلومات أو التصويب فلهم جميعاً العرفان بالجميل والفضل، كما أعبّر عن امتناني اللامحدود لجهد

الباحثين الذين تناولوا سيرة حياته وصدرت في كتب أو نُشرت في حوارات في الصّحف أو المجلّات أو المقابلات التلفزيونيّة وكانت عوناً وسنداً لي في مهمّة إنجاز الكتاب فجميعهم قدّموا دعماً لا غنى عنه بجهدهم فالفضل يعود لأصحابه.

وكلمتي الأثيرة هي أنّني حاولت قدر استطاعتي ولكن هل نجحت؟ الإجابة ليست معي لكن الّذي أتلمّسه بصدق هو أنّ القصة الملهمة لحياة طلال أبوغزاله تستحوذ على اهتمام كلّ مَن يبحث عن المعنى الجميل للحياة عندما تقسو، وكيف ينجح المرء في استيعابها والسيطرة على فورتها وغليانها؟ وكما يقول العالم والشاعر الإنجليزي جون ميلتون «إنّ العقل قادر على أن يصنع من الجحيم نعيماً ويصنع من النعيم جحيماً».

الصّدى اللعين

...ولم تلبث أن أطلّت من بعيد. كانت تسير في تأنٍّ واتّزان مطرقة برأسها إلى الأرض إطراق الغارق في بحر من التفكير. وغاظني تمهّلها في المسير إلى لقياي كأنّها لا تكترث لما أنتظرها به من شوق.

إنّها الفتاة الّتي أحبّ... ينقلب الغيظ إلى حيرة. فهذه الإنسانة لم تكن مَبعث غيظ في يوم من الأيام. وأصبحتُ أعتقدُ أنّها لا تفيض إلّا بالحب... والسعادة... والخير. لذلك أصبحتُ حائراً ينتابني شعور بالغيظ ولكنّني أجد مبرراً، يحول بيني وبين هذا الشعور. وزادَ كلّ ذلك من لهفتي لأن أحدّثها عن الشوق... عن حلمي الحبيب. ورحت أستعيد قصّة لقائنا الأخير أشغل بها نفسي عن ألم الحيرة ولوعة اللهفة.



القصة الفائزة بجائزة «القصة القصيرة» في المسابقة التي أجراها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والأدب والعلوم الاجتماعية بالجمهورية العربية المتحدة بين طلاب الجامعات والمعاهد العليا في البلدان العربية، بقلم طلال أبوغزاله – ١٩٥٨

كان والدي يحدّثني برؤية صاحب التجربة العارف لما يجري، وكنت أُصغي إليه على أنّه يتكلّم برؤية جيل قديم... فتىً يأبى أن تطعن آمال أمّته... ولو بأفكار أبيه... حاورته:

قال لي: «قد تتهمني، يا بُنيّ، بالرجعيّة والتشاؤم والتخاذل، غير أنّ الأيام ستثبت لك خطأ ظنك وتريك ما لا تراه عيناك. إنّك تجرّد من الوطنيّة جيل والدك

وتثقل عليه اللوم، وما كنتَ لتفعل ذلك لو لم تنظر إليه بمنظار عاطفة جوفاء تدعوها (وعياً) وهي أبعد ما تكون عن الوعي. إنّ الجيل الذي تهاجمه يا بني غير متخاذل وليس خائناً بل هو جيل تخطّى حدود الوعي العاطفيّ إلى الوعي الواقعيّ ذلك أنّ الوعي العاطفي ليس إلّا تعلّقاً بحلم كبير تسلِّطُ عليه الأيّام أنوارها فينكشف... وتخبو العاطفة».

تنفّس بعمق وتابع ليقول «الإقرار بواقع من المُحال أن يتغيّر تسمية رجعيّة. ولكن بربّك قُلْ لي ما التحرر والثورة والتقدميّة؟ إنّها أداء فارغ بكينونة ما نتمنّى أن يكون... إنّها الإصرار على تجاهل الواقع والتشبُّث بحلم عاطفيّ واهٍ. الواقع العربيّ حقيقة بقيت كما هي أجيالاً طويلة... ولا يبدو أنّها ستتغير».

«أمّا الواقع الذي تنشده وتتمنّاه وأنا أيضاً أتمنّاه فلن يكون».

أمسك بيدي وهزّ برأسه وهو ينظر إليّ، اعتبرْ هذا تشاؤماً إن شئت، أمّا أنا فأدعوه واقعيّة. حلمك الكبير أمنية لنا جميعاً... أنا وأنت وكلّ الشعب... والفارق الوحيد هو أنّني أدرك أنّه مجرّد أمنية بينما تظنّه أنت واقعاً سيكون أو يتحقّق.

يا بُنيّ «والشعور بالمسؤوليّة لمن هم في عمرك وتجربتك وخبرتك يعني فقط التعلّق بالخيال دون الواقع، أو هو التحمّس لِلّا شيء، أو لعمل لا طائل تحته، كمَن يقضي النّهار جرياً وراء ظلّه. إمّا أن يُدرك المرء حقيقة الظلّ ويكفّ عن متابعته فذلك تخلٍّ عن المسؤوليّة وتهرُّب من الواجب».

وشعرت برغبة ملحّة في الكلام. وفكّرت بأن أواجهه بردٍّ قويٍّ صريح... ولم أجرؤ. ونظرت إلى صحن السجائر أريد أن أسحق عقب سيجارة كان يبعث دخاناً يرسم «خيالات» لا تلبث أن تتبدّد في الفضاء... وجبنت ثانية. إنّها تقاليد الأسرة! عندما يتحدّث الكبير عليك أن تنصت وتستمع، التقاليد التي شعرت أنّها تريد أن تخرسني أمام هذا السّيل العارم من التحامل والمغالطات كما أعتقد. ووجدتني بحاجة لأن أثور... لأن أحطّم التقاليد مرّة واحدة... من أجل أن أدافع عن «حلمي الكبير».

منذ أربع سنوات اغتُصبَت فلسطين، فكفر والدي بكلّ شيء... ناعياً الأمّة ومستقبلها. وانقضت السنوات الأربع العجاف دون أن يشعّ بصيص أمل مهما

كان ضئيلاً. كانت أوضاع الوطن تسير من سيّئ إلى أسوأ... وقصّة تشريد شعبنا العربي في فلسطين تصبغ حياتنا بلون أسود قاتم. كنّا ننظر إلى خيام البؤس كمّن يتحدّى إرادتنا ويطعن كرامتنا فلا نملك أكثر من أن نُعرض عنها بأسىً وغيظ. كلّ خيمة نُصِبت لنازح هنا كانت وصمة عار في جبيننا نحن عرب لبنان. وانتفض الشعب في لبنان ليمحو وصمة العار فصدمة الواقع المرير... وارتدّ قانطاً يائساً. كان الظلام المخيم على أرجاء الوطن العربي شديد الحلكة. وتعاظم اليأس حتى أوشك أن يتحوّل إلى استكانة وقبول بالواقع البغيض المقيت.

لذلك كانت ثورتي. فهذا اليأس القاتل كان أوّل ما يهدّد حلمي الكبير بالتلاشي والضياع. وأصبحت أعتقد أنّ البوح بالحلم جريمة... الجريمة الوحيدة التي لا تُغتَفر. وحاولت جاهداً تبرئة والدي من تلك «الجريمة» فرحت أختلق لمواقفه الأعذار... وفشلت. ذلك أنّ فكرة «فلسطين لن تعود» لا يمكن تبريرها من أيّ كان. وأردته أن يقولها صراحة لأثور... لأحطّم التقاليد... لأطلق الكلمات الحبيسة في صدري وصدر أخوتي الصامتين. وسألت:
- وفلسطين... هل تعود؟
قلتها بنبرة كلّها تحدّ واستنكار. واضطرب جوّ الغرفة، وعلقت الأنفاس، وأحسست بالنّظرات من كلّ جانب تخترقني... نظرات والدتي وأخوتي الصغار. كانت نظرات واجفة متوسّلة ترقب الجواب. وتكلّم والدي...
- وهل يدلّ واقع أمّتنا على ذلك؟
- ولكنّنا ثائرون على هذا الواقع عازمون على قلبه.
- لقد ثرنا عليه أجيالاً طويلة فأيّ نصر حققنا غير ضياع فلسطين؟!
- ولكنّها ستعود رغم أنف الدّهر.
- ذلك حلم
- ولكنّه سيتحقّق
- بل لن يتحقّق

وضاقت بي الدنيا. وتأجّجت الثورة في داخلي واشتدّت... ثم انقلبت إلى نقمة. ولم أجد مَن أصبّ عليه نقمتي غير نفسي... ولم أحتمل. فغادرت من مكاني بعيداً عن والدي، عن الجو الذي كاد يخنقني. أسرعتْ خطاي نحو الشاطئ كي أغسل فيه نقمتي ولكنّني لم أستطع الهرب. إنّ الفكرة اللعينة كانت تلاحقني... والصدى اللعين كان يتعالى مدوّياً «فلسطين لن تعود».

وفجأة تذكّرتها... تذكّرت وفاء. ونسيت الشاطئ، والصدى اللعين، النّقمة على نفسي. واتّجهت لأقرب غرفة هاتف فكلّمتها، وطلبت إليها أن تقابلني في الحال. وضعت سمّاعة الهاتف وأغلقت باب الغرفة وخرجت. التفت إلى الرجل الجالس هناك فوجدته يبتسم... وابتسمت دون أن أفهم شيئاً. وقطعت الشارع... ثمّ تذكّرت أنّي لم أدفع أجرة استخدام الهاتف. فلمّا عدت إليه وجدته مازال يبتسم فأدركت أنّه قد فهم.

والتقينا بعد دقائق. جلست أتأمّلها... فإذا السعادة تغمرني والاطمئنان يملأ كياني. كان كلّ ما فيها جميلاً ساحراً: شعرها الأشقر المُنسدِل، عيناها الخضروان الحالمتان، وذراعها البضّة الناعمة الملقاة على الطاولة برفق ودلال. كانت أكثر من جميلة... فالدفق الروحي الهيولي الفائض عنها الممزوج بالجمال... هو عالم فوق الوصف... ولم أكن أحبّها لذاتها الجميلة فقط بل لتلك الروح التي تخلقها في وأنا إلى جوارها. إنّها لم تكن مجرّد «هي» بل كانت هي.... وأنا... والوجود كله... كانت إنساناً يفهمني.

بقيت برهة أهيم في بحر عينيها. وتحرّك في الفضاء أمام ناظري بنانها الرقيق يداعبني كي أفيق من حلمي الحبيب... وأفقت أردد:
«لن يتحقق الحلم الكبير»
وتساءلت بهلع واستغراب: «كيف تقول ذلك؟»
وأجبتها: «إنّ والدي هو من قال ذلك»
أبَتْ وفاء إلّا أن تبقى على بصيص من أمل فراحت تسألني: «وهل كان جوابه قاطعاً؟» فأومأتُ رأسي مجيباً: «ولم يكتفِ بذلك بل حمل عليّ وعلى حلمي الحبيب».

وسمعتها تتمتم بأسىً وحسرة: «لن يتحقق الحلم... ولن نسعد بالزواج»

وصدمتني الحقيقة البغيضة. لقد أدركت لأوّل مرّة أنّها لا تفهمني... إنّها تظنّ أنّ لا حلم إلا حلم الحبّ الصغير. وتبخّر «الدفق المعنوي» في لحظات وتحوّلت «الإنسانة التي تفهمني» إلى قطعة باردة لا صلة لها بي. واضطرب الجو... وشعرت بالنّقمة تملأ كياني... والصّدى اللعين عاد من جديد. ومرّة أخرى... لم أجد هدفاً للنقمة سواي. وأردت أن أطفئ من نار النقمة التي أخذت تنتابني فتكلّمت... تكلمت بصراحة ودون رؤية أو تفكير.

أفهمتها أنّ لديّ حلماً آخر... حلماً كبيراً... حلماً يمثل أماني أمة وإرادة شعب. وحدّثتها عن هذا الحلم عن حتميّة وضرورة تحقيقه، عن صعوبة تجسيده وما يعترضها. ثمّ وصفت لها كيف أنّي قد طعنت اليوم في حلمي الكبير مرّتين: مرّة بيد والدي وأخرى بيدها هي، وكيف أنّي لم أحتمل أن يُطعن حلمي فنقمت، ليس على والديّ ولا على الفتاة التي أحببتني، بل على ذاتي. لقد وجدت نفسي ناقماً حاقداً ما بين جيل تخلّى عن الحلم الكبير وجيل شَغَله حلم صغير. وأصبحت أخشى على حلمي الكبير أن يتلاشى فشُغلت به ونسيت كلّ شيء... حتّى ذلك الحب الذي «يملأ دنياي».

وتركتها، وتذكّرت الشاطئ فهرعت إليه هرباً من نفسي... ومن الصّدى اللعين. ووصلت الشاطئ. ورحت ألتقط أنفاسي بعد أن أخرس هدير البحر الصاخب ذلك الصّدى اللعين.

أخذت أرقب الأمواج تتكسّر على الشاطئ الرمليّ العريض. كانت تتدافع متتالية دونما كلل أو ملل حتّى إذا ما تكسّرت على الرمال الصفراء المتلألئة غسلتها من أدران اليابسة. وأبصرت عند أقصى مبلغ الموج بقعة سوداء قاتمة تلطّخ نقاوة الاصفرار المتلألئ. ثمّ أدركت أنّ هناك صراعاً بين الأمواج المتدافعة وتلك البقعة التي عكّرت صفو الرمال. وتتالت الأمواج... وحاولت كلّها أن تمحو البقعة القاتمة... فعجزت.

بقيت قطعة السواد تلطّخ الرمال. وتأمّلتها... وكأنّ البحر هدأ واستكان أو يئس... فبدت لي فخورة متحدّية. وشعرت بدافع قويّ لركلها بقدمي إلى البحر. ولم أكد أخطو نحوها حتّى لطمتني موجة عارمة ألقت بي على الرمال. وانحسرت الموجة. والتفتُّ من حولي أبحث عن البقعة فلم أجدها... لقد ابتلعها البحر.

وفجأة سكن الكون وتلاشى كلّ صوت... حتّى الهدير الصاخب الذي أخرس الصدى اللعين... عرفت كيف يتحقّق الحلم الكبير. وسمعت صدىً جديداً يأتي من بعيد: «سيتحقّق الحلم... وفلسطين سوف تعود» وجعلت أركض فرحاً أريد الاقتراب من ذلك الصدى الحبيب.

ابتعدتُ عن الشاطئ وأسرعت إلى حيث كنت واقفاً قبل دقائق... فلم أجدها. واقتربت من الطاولة التي كنّا نجلس إليها ووضعت كفّي حيث كانت «الذراع

البضّة الناعمة ملقاة برفق ودلال»... فشعرت «بالدّفق المعنويّ الفائض عن ذاتها» يدبّ فيّ من جديد. بقيت كذلك برهة أفقت بعدها على النّادل وهو يمسح الطاولة من ماء البحر الذي خلّفته يدي. ونظرت إلى ثيابي المبلّلة... ثمّ إلى النادل... وابتسمت ولم أخجل.

كنت لا أزال أسمع الصدى الحبيب وأنا أتّجه مسرعاً إلى الغرفة التي كاد يقتلني جوّها منذ زمن قصير. ومررت برجل غرفة الهاتف وحيّيته ففغر فاه وهو ينظر إليّ... ولم يردّ. وتأمّلت مبتسماً نظرات السخرية والعجب التي قابلني بها الناس، فسخرت من سخريّتهم وعجبت لعجبهم. بل لقد كنت في شغل شاغل من ذلك... كنت سعيداً بحلمي الكبير. إلّا أنّ ذلك الحلم كان سعادة شعب بكامله وفرحة أمّة بأسرها. ووددت أن يشاركني الشعب النبيل هذه الفرحة وتلك السعادة فرحت أحيّي كلّ مَن رأيت وأبتسم له حتّى حامت حول عقلي الشكوك.

دفعت باب المنزل والصّدى الحبيب مازال ينساب إلى أذني في لحن جليّ رقيق. وعجبت من والدي... وأمّي... وأخوتي كيف لم يسمعوا لحني الحبيب! وجلست أمام والدي أؤكد له من جديد:

- «سنحقّق الحلم الكبير... وفلسطين سوف تعود»

فحدّق فيّ مشدوها وهزّ رأسه... ولم يصدّق، حتّى إخوتي... لم يصدّقوا ذلك. ونظرت أمّي إلى الثياب العالقة بجسدي فضربت كفّاً بكفّ... وانحدرت على خدها دمعة.

ولم أحزن. كنت أعلم أنّ اللحن الحبيب... لحن الحلم الكبير... سوف يصل إلى آذانهم. عندئذ يصدّقني أخوتي، وينظر إليّ والدي بثقة واطمئنان، وتنحدر على خدّ أمّي دمعة أخرى... دمعة الفرح.

ومرّت أيّام ثلاثة قضيتها وحيداً في سعادتي أنتظر وأنتظر... حتّى أطلّ صباح يوم رابع. تركت فراشي وأسرعت إلى الغرفة المجاورة أستجلي الخبر. كانوا حول المذياع... عيوناً تبرق ببريق الأمل... وقلوباً تنبض بالعزم والثقة. وجُلت ببصري على الجميع... وعلت أصوات أفراد الأسرة يتسابقون لإبلاغي أعزّ أمنية. «ثورة في مصر»... وابتسمت. ونظرت إلى والدي فوجدته يبتسم مردّداً:

- «نعم يا ولدي... سيتحقّق حلمنا الكبير... ولسوف ترجع فلسطين».

فهززت رأسي وصدّقت.

ودوّى الصدى الحبيب في كلّ مكان، ودخلت السعادة كلّ قلب لقد عاد الشعب الأبي «يصنع التاريخ من جديد... وتلاشت إلى الأبد مقولة فلسطين لن تعود» وسرى في أمّتي دفق الثّقة والتصميم... الثقة بالحلم الكبير، والتصميم على تحقيقه. أصبح الشعب... كلّ الشعب... يعدّ نفسه لمعركة الثأر المباركة. والدي... وأخوتي... ورجل غرفة الهاتف... والنادل. لم يعد في أمتي من يكفر بالحلم الكبير.

وعادت إليّ رغبة جامحة للحبّ. ذلك أنّ الحب لكي يكبر فينا ويقوى يحتاج إلى أمل وثقة بذلك الأمل. فإذا ما راودت المرء شكوك بمستقبله ومصيره ونفسه فإنّه سيحتاج الثّقة حتماً قبل الحب. ثمّ أنّ الحبّ هو قتل الأنانيّة، إنّه انفتاح الذات كي تتّسع للغير. وأداء الواجب القوميّ يعني كذلك قتل للأنانيّة لأنّه يذيب الفرد في المجموع والمواطن في الأمّة. لذلك، ما أن استشعرت طمأنينة الثقة ولذّة العمل حتّى وجدت نفسي بحاجة للحبّ من جديد فأسرعت أطلب الفتاة التّي حطمت «حلمها الصغير» كي أبنيه من جديد.

مرّ كلّ ذلك بخاطري وأنا أرقبها تُقبل من بعيد. وجلست أمامي... بشعرها وعينيها ويدها البضّة... وغمرني دفقها المعنوي. نظرت إلى وجهها المشرق وهمت في ابتسامتها الساحرة... ولم أتكلّم. وجذبني إليها شيء جديد تردّدت في تصديقه. لقد لمحت في نظراتها مسحة من أمل وثقة. وعجبت من أمر هذه الفتاة! أحطّم حلمها... أتركها حانقاً... أنساها أيّاماً... فلا تنتقم ولا تحقد بل تقبل راضية مسرورة.

وأصغيت لبريق الأمل المنبعث من العينين الخضراوين يروي قصّة الحلم الكبير الذي أخذ يتحقّق. وأردتها أن تسعد... أن تعيش قصّة الحبّ بأحلامه وآماله، فناجيتها:

- وفاء...إنّ أحلام حبّنا ستتحقّق!

وصمتُّ لحظة أرقب النسيم يداعب سيل شعرها المنسدل. واقترب الوجه الجميل... فوق المنضدة... وأسند إلى كفها الصغير... وتهادى صوت عذب رقيق:

- «حدثّني أولاً... عن الثورة المجيدة».

وسمعت حشرجة الصّدى اللعين... وابتسمت... وحدّثتها عن الثورة وعن الحبّ أيضاً. لقد آمنت الأمّة بالحلم الكبير، ولم يعد في أمّتي من يشغله حلم صغير.

السيرة الذاتية للكاتب

ماهر مقلد
مدير تحرير صحيفة الأهرام المصريّة

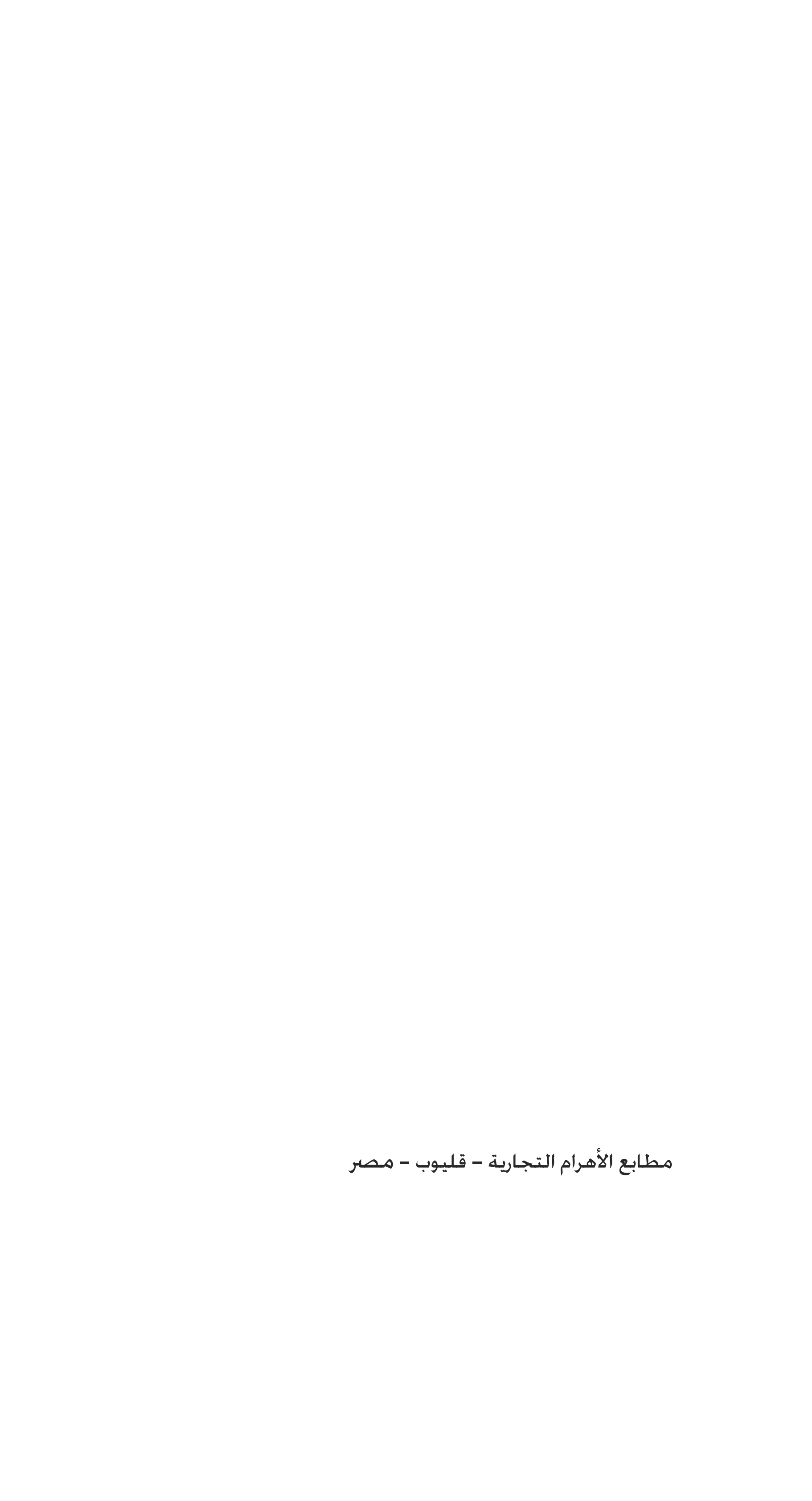
كاتب صحفي وروائيّ مصريّ من مواليد مركز جهينة محافظة سوهاج ١٩٦٢.

أصدر كتابه الأول «ناريمان الملكة الأخيرة» عام ٢٠٠٥ وروايته الأولى «الشيخ وحشي» ٢٠٠٧ ثم روايته الثانية «صمت الجبال» ٢٠١٤ ثم «كتاب لبنان فتنة القصور» ٢٠١٥.

التحق بالعمل في جريدة الأهرام بعد تخرّجه من كليّة الآداب بسوهاج عام ١٩٨٤ وتدرّج في المناصب بها حيث شغل منصب مدير مكتب الأهرام في لبنان من ٢٠٠٦ حتى يناير ٢٠١٠ ثم نائب رئيس التحرير وعضو الدسك المركزي.

عمل رئيساً للقسم السياسي في جريدة الشرق الأوسط مكتب القاهرة ورئيساً للقسم السياسي وعضو مجلس التحرير في مجلة الأهرام العربي.

البريد الالكتروني: mmaklad50@gmail.com



مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

طلال أبوغزاله

الصعود إلى القمة

حياة الدكتور طلال أبوغزاله رجل الأعمال العربيّ مؤسس مجموعة طلال أبوغزاله، تجربة تستحق أن تروى للأجيال بكل ما فيها من قيم نبيلة ونجاحات عالميّة فاقت كل التّوقعات.

بدأ طريق العمل من تحت نقطة الصفر، وأضحى بمرور السنوات الشخصيّة المرموقة على مستوى العالم في دنيا المال والأعمال والمحاسبة والاستشارات.

طلال أبوغزاله لم يعرف في طفولته معنىً للبكاء، وتحمّل في سنوات شبابه مسؤوليّات الكبار، وفي مرحلة جني الثمار كان لا يتحدّث عمّا أنجز بل يزيد من ساعات العمل لإدراك المزيد من النجاح.

هو صفحة مضيئة في التاريخ الإنسانيّ تحتاج جهداً كبيراً لتوثيقها ورصد أبرز مراحلها لا من قبيل تخليد الاسم أو إلقاء الضوء عليه، ولكن من باب تقديمه كقدوة وحافز للطموح.

بدايته كانت مثل معظم أبناء فلسطين الذين هاجروا في الشتات قسراً بعد النكبة عام ١٩٤٨، لا تختلف قصّته في شيء.

حاز على منصب رئيس لجنة المعايير الدوليّة للمحاسبة في منظمة الأمم المتحدة ومن حوله يجلس كوكبة من كبار خبراء المحاسبة في العالم لوضع ملامح الطريق للمهنة عالمياً ببصمات طلال أبوغزاله ابن فلسطين المحتلة. لم يكن هذا الموقع القيادي هو الأبرز الذي وصل إليه، بل هو واحد من بين عشرات المناصب العالميّة التي يستحقّ كل موقع منها وقفة طويلة للتعرف على كيف صعد إليه؟

ترأّس العديد من المؤسسات والهيئات والمجالس أبرزها المجمع الدولي العربيّ للمحاسبين القانونيين الّذي تأسّس في المملكة المتّحدة ١٩٨٤، كما يرأس المجمع العربي للملكيّة الفكريّة منذ تأسيسه في ألمانيا عام ١٩٨٧، كما تمّ اختياره ضمن أفضل ٢٥٠ مخططاً استراتيجيّاً في مجال الملكيّة الفكريّة على مستوى العالم من قبل مجلة الأصول الفكريّة.

ماهر مقلد



